

## العباس بن الأحنف

أيها الراقدون حولي أعينوا نى على الليل حسبةً واثتجارا

حدثوني عن النهار حديثاً أو صفوه فقد نسيت النهارا

أجل قد نسي العباس بن الأحنف النهار بعد أن طال به الليل ؛ يتعبد في محراب حبه ، ويبكى آلام قلبه ، ويتزعم بذلك الحب العفيف في عصر امتهنت فيه العفة وابتذل الكثيرون ، واشتهر أمثال أبي نواس من الظرفاء اللاهين الذين يعبثون بأقدس عاطفة في الوجود .

في عصر الرشيد ظهر العباس ليدعو الناس إلى التوحيد في الحب ويعيش حياته بقدس محبوبة واحدة ، ويبشر بهذه الوحدة التي نمت عن روح عظيم وقلب كبير .

وإذا كان العرب في عهودهم الأولى قد جروا على استهلال قصائدهم بالنسيب والبكاء على تلك الديار المتقلقلة التي يرحل عنها أحباؤهم سعيًا وراء المرعى والمطر ، ويخلفون لهم الشوق والحنين ، فإن العباس أعاد في عهد بني العباس سيرة الحب العذرى ، وفاق أسلافه الذين اشتهروا في عصر الأمويين بانقطاعه حياته إلى نوع واحد من الشعر لا يكاد الباحث يجد في شعره سواه . . شعر كان كأوراد الصوفية التي لا يملأون ترددها ، لسكرته قصره على التصوف في الحب والتعبير عن هواه العظيم حتى في آخر لحظات حياته ، لم ير برءه إلا في رشفة من رضاء الحبيب ترسل له في زجاجة ، وإذا سئل عوده عنها فهو ينصح بأن يجيبوا أهله بأنها بعض ماء زمزم :

أزوارَ بيت اللهِ مرُّوا بيثربِ      حاجةً مقبُولِ الفؤادِ كئيبِ

وقولوا لهم : يا أهل يثربِ أسعدوا      على جلبِ للحادثاتِ جليبِ

فإننا تركنا بالعراق أخا هوى      تنشَّبَ رهناً في حبالِ شعوبِ

به سَقَمَ أَعْيَا المداوين علمه      سوى ظَنَمَ من مَخْطِئ ومَصِيبِ  
خُدُوا لِي مَنَها جَرَعَةً في زَجَاجَةٍ      أَلَا أَنهَـا لو تَعْلَمُونَ طِيبِي  
وسَيَرُوا فَإِنْ أَدْرَكْتُمْ بِي حَشَاشَةٍ      لها في نَوَاحِي الصَّدْرِ وَحَسِ دِيبِ  
فَرَشُوا عَلَى وَجْهِ أَفُقٍ مِنْ بَلِيَّتِي      يَثِيبِكُمْ ذُو الْعَرْشِ حَيْرٌ مُثِيبِ  
فَإِنْ قَالَ أَهْلِي مَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ ؟      وَقَدْ يَحْسُنُ التَّعْلِيلَ كُلُّ أَدِيبِ  
فَقُولُوا لَهُمْ : جِئْنَا مِنْ مَاءِ زَمْزَمِ      لِنَشْفِيهِ مِنْ دَائِهِ بِذَنُوبِ  
وَأَنْ أَأَنْتُمْ جِئْتُمْ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكُمْ      وَيَنْبِئُ يَوْمَ الْعَمَلِ عَصِيبِ  
فَرَشُوا عَلَى قَبْرِى مِنَ الْمَاءِ وَانْدَبُوا      قَتِيلَ كَعَابٍ لَا قَتِيلَ حُرُوبِ

فإذا مات العباس سنة ١٩٢ هـ أمر الرشيد ابنه المأمون أن يصلى عليه اعترافاً  
بفضله ومكانته من المجتمع والأدب والشعر .

أما مكانته في الشعر فقد أجمع النقاد على أنه أعظم للمفترقين في الفن الواحد  
وكان منه النسيب « فلم يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء ولم يكن يقتصر في شيء  
من هذه المعاني <sup>(١)</sup> » . ومن اقتصر على ناحية بذاتها من الشعر لاشك أنه بالغ فيها  
ملا يبلغه غيره ؛ والتخصص دائماً أحد وسائل الإفادة ، وقد تخصص العباس في  
أرقى أنواع الشعر ولم تسكن الرقة مجلوبة في شعره بل هي نابعة من طبيعة مهبذة  
وقلب شديد الحساسية ونفس قد تأثرت بالبيئة التي حولها والتي شاعت فيها أسباب  
المدنية والحضارة . استمع إليه يردّ على خطاب :

وصحيفة تحكى الضمير      رَ مليحة نغماتها  
جاءت وقد قرّح الفؤاد      د ل طول ما استبطناتها  
فضحكت حين رأيتهَا      وبكيت حين تَرَاهَا

عيني رأيت ما أنكرت فتبادرت عبراتها  
أظلم نفسي في يديك حياتها ومماتها

وقد جمع إلى رقة الحديث وعذوبته : الابتكار في المعاني والتراكيب ؛ فهو يقول  
معبراً عن استمتاع أذنه إلى جانب نظره :

أتأذنون لصبّ في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر ؟  
والعتاب من الفنون التي تفوّق فيها العباس ، ولا شك في أن الرقة في مقتضيات  
العتاب ليبلغ قلب الحبيب ويظفر برضائه ورحمته :

كتبت فليتني مُنيتُ وصلّا ولم أكتب إليك بما كتبتُ  
كتبت وقد شربت الراح صرفاً فلا كان الشراب ولا شربت  
فلا تستنكروا غضبي عليكم فلو هتمت علىّ لَمَا غضبتُ  
فهل أعذب من هذا أو أرق شيء في تبرير المغاضبة ولطف العتاب ؟  
بل إن العباس يرى أن الحب لا تدرك حلاوته بغير مغاضبة تأتي بعدها نعمة  
العتاب :

وأحسن أيام الهوى يومك الذي تروّع بالهجران فيه وبالعتبِ  
إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا رضاء فأين حلاوات الرسائل والكتبِ  
لكنه يعلم جيداً الفرق بين صد الملل وصد العتاب ، وهو يفزع من صد توهمه  
من نوع الملل فيقول مسترحماً :

لو كنت عاتبةً لكنّ لوعتي أُملى رضاك وزرت غير مراقبِ  
لكن مللت فلم تكن لي حيلة صدّ الملل خلاف صدّ العاتبِ  
وهو أخيراً مشفق على وده أن تضيقه كثرة التجنى ، فهو يشرح في الأبيات

التالية حبه العظيم الذى ينكره الناس ويحاولون التشكيك فيه ، وينذر حبيبته بعاقبة الاستماع إلى الناس وكثرة التجنى :

وقد حُملت من حُبِّك ما لو      تقسّم بين أهل الأرض شابوا  
أفيق من عتابك فى أناس      شهدت الحظ من قلبى وغابوا  
وكنت إذا كتبت إليك أشكو      ظلمتِ وقتِ ليس له جواب  
فعمشتُ أفتوتُ نفسى بالأمانى      أقول لـكل جاحدة إياب  
وإن الود ليس يكاد يبقى      إذا كثر التجنى والعتاب

ولقد كان العباس يمتلك كل المزايا التى تؤهله لأن يكون محبوباً من الناس فهو من أسرة كريمة منعمة ، حسن المنظر ، صرموق المسكانة الاجتماعية لاسيما بقربه من أمير المؤمنين ، حلو الشماثل ، عذب الحديث ؛ حتى لقد وصفه أحد الناس بقوله « كان والله بمن إذا تسكلم لم يحب سامعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول ( كلامه شعر كله ) لقلت .. بل أن شعره كان وافر الحظ من الغناء فتناقلته المجالس وأقبل على إنشاده المغنون والقيان اعذوبة ألفاظه وجزالة تراكيبه . ومن قصائده المشهورة فى الغناء قوله :

نام من أهدى نى الأرقا      مستريحاً زادنى قلقاً  
لو يبيتُ الناس كلهم      بسهادى بيّض الحدقا  
كان لى قابُ أعيش به      فاصطلى بالحب فاحترقا  
أنا لم أرزق مودتكم      إنما للعبد ما رُزقا

وكان من اليسير على العباس فى عصره أن يتخذ من الخليلات ألواناً ، وأن يكون له غير « فوز » كثيرات ومع ذلك فهو لم يحب إلا « فوزاً » هذه ، وتدلّه فى حبها حتى بدا فى مظهر الضعف أمامها عند ما قال :

تَحْمَلُ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تَحْبِبُهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَقُلْ أَنَا ظَالِمٌ  
فَإِنَّكَ إِلَّا تَعْفِرَ الذَّنْبَ فِي الْهَوَى يَفَارِقُكَ مَنْ تَهْوَى وَأَنْفَكَ رَاغِمٌ  
فَمَا الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ ؟ وَهَلْ يَعْتَبِرُ ذَلِكَ ضَعْفًا ؟ أَمْ تَرَاهُ مِنْ ضَرُورَاتِ الْحُبِّ  
الْعَفِيفِ الَّذِي أَنْطَقَهُ بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

أَتَأْذَنُونَ لَصَبٍّ فِي زِيَارَتِكُمْ ؟ فَمِنْذَكُمُ شَهَوَاتِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ  
لَا يَضْمُرُ السَّوَاءُ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ عَفَا الضَّمِيرَ وَلَكِنْ فَاسَقُ النَّظَرَ

إِنَّ الْعِفَّةَ سَلْبِيَّةٌ ، لَكِنَّمَا عِنْدَ الْعَبَّاسِ إِيجَابِيَّةٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ يَزْهَدُ فِيهِ . وَلَقَدْ  
كَانَ فَاسِقُ النَّظَرِ كَمَا يَقُولُ ، فَعَفَا عَنْهُ ، لِأَنَّهُ لَيْسَتْ عِفَّةُ الْمَغْلُوبِ عَلَى أَمْرِهِ ، بَلْ عِفَّةُ  
الشَّرِيفِ الَّذِي يَجَاهِدُ هَوَاهُ ، يَغَالِبُهُ وَيَقَاوِمُ شَهْوَانَهُ حَتَّى لَا يَثْقُلَ الْإِنِّمُ ضَمِيرَهُ . حَتَّى  
لَا تَشُوبُ صَفْحَةَ أَخْلَاقِهِ الْكَرِيمَةِ شَائِبَةٌ .

بَلْ إِنَّهُ جَاهَدَ قَلْبَهُ جِهَادًا عَنِيفًا آخِرَ لَا يَقِلُّ صِرَامُهُ عَمَّا أَخَذَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ عِفَّةِ  
الْحُبِّ . . . ذَلِكَ جِهَادُ الْكُتْمَانِ . . . وَهَلْ يَخْفَى الْحُبُّ ؟ وَهَلْ يَسْتَطِيعُ الْحُبُّ أَنْ يَطْوُوا  
أَضَالَعَهُمْ عَلَى نِيرَانِ الْجَوَى دُونَ بُوْحٍ وَحَدِيثٍ ، وَدُونَ اسْتِصْرَاحٍ وَاسْتِعْطَافٍ وَدُونَ  
اللَّجْوَاءِ إِلَى وَسَاطَةِ الرِّسْلِ وَمَا يَفْضَحُ عَوَاطِفَهُمْ ؟ لَكِنِ الْعَبَّاسُ قَدْ نَجَحَ فِي إِخْفَاءِ اسْمِهِ  
مُحِبُّوْبَتِهِ الَّتِي رَمَزَ إِلَيْهَا فِي شَعْرِهِ بِقُوزٍ ، وَحَاوَرَ النَّاسَ فِي أَمْرِهَا حَتَّى غَلِبَهُمْ فَقَالَ :

قَدْ سَجَّبَ النَّاسُ أَذْيَالَ الظُّنُونِ بِنَا وَفَرَّقَ النَّاسَ فِينَا قَوْلُهُمْ دَرَقًا  
فَجَاهِلٌ قَدْ رَمَى بِالظَّنِّ غَيْرَكُمْ وَصَادِقٌ لَيْسَ يَدْرِي أَنَّهُ صَدَقًا

بَلْ إِنَّهُ يَتَحَمَّلُ الْهَجْرَانَ فِي سَبِيلِ الْحُبِّ وَالْحَرَصَ عَلَى مَنْ يَحِبُّ فَيَقُولُ :

سَاهَجِرْ إِلَيَّ وَهَجْرَانَهَا إِذَا مَا التَّقِينَا صُدُودَ الْخُدُودِ  
كَلَانَا مُحِبٌّ وَلَكِنَّمَا نَدَافِعُ عَنْ حُبِّنَا بِالْصُدُودِ

وَيَدَّعِي أَنَّهُ سَلَا حُبَّهَا إِمْعَانًا عَنْهُ فِي سِتْرِ هَذَا الْحُبِّ وَإِخْفَائِهِ عَنِ النَّاسِ فَيَقُولُ :

كَذَبْتُ عَلَى نَفْسِي لِحَدَّثْتُ أَنِّي سَلَوْتُ لَكُمَا يَنْكُرُوا حِينَ أَصْدَقُ

وما عن قلبي منى ولا عن ملالة      ولكننى أبقي عليك وأشفق  
لكنه فى فوز دائم بعد كل هذه التحفظات فيصرخ فى شبه يأس :

فكيف استتارى إذا ما الدموع      نطقن فُبْحَنَ بما أُضمر

ويبدو أن هذه المبالغة فى السكتان لم تعجب بعض معاصريه فكانت موضع  
تنذير بينهم ؛ حتى أن إحدى جاراته سمت خادمة لها فوزاً للسخرية منه فقال :

سمت ولیدتها فوزاً مغايلة      عذرت لو لطمتنى ذات إسوار  
وما يزال نساء من قرابتها      فى كل ناحية يهتكن أستارى

وهو هنا يحدثنا أن ذوى قرابها يحاولون كشف أستار حبه ، فإذا كان نصيبه  
من هذا الحب ؟ يقول العباس :

ويقنعنى ممن أحبُّ كتابه      ويمنعنيه ؛ إنه لبخيل !

فياله من محب قانع يرضى من الحب برسالة تأتیه من فوز ، وهى تسرف فى  
الدلال فتمنعه هذا الكتاب ؛ ولعلها تعلم قيمة الكتاب . . فهو عزاء العاشق وشفاء  
قلبه على البعد ، وأثر الحبيب بين يديه يقرؤه ، ثم يعيد قراءته ولا يمل تردادده . وهو  
حين يقرأ هذا الكتاب يتمثله حاضراً بين يديه يسرُّ إليه النجوى ويستمع له  
ولا يشركهما أحد فى نجواهما وحديثهما الموصول . . ولعل فوزاً كانت خليفة بهذا  
الحب العظيم ، فهى كما ينمُّ شعر العباس من العقائل النبيلات فى بغداد لها حظ من  
من ثقافة ، تقرأ كتبه وتكتب له ، فكان عليها حرصاً ، وعلى سرها أميناً رغم  
كل ما يكابد فى هذا السبيل :

عيون العائدات تراك دونى      فيا حسدى لعينى مَنْ يراكِ  
أريدك بالسلام فأتقيهم      وأعد بالسلام إلى سواك  
وأكثر فيهم ضحكى ليخفى      فسقى ضاحكٌ والقلب باكِ

إنه يستعذب هذه الآلام من أجلها ويشقى بحبه في مدينة تهب الحب من يشاء  
وبغير عناء . . مدينة كان طابعها الترف وكثر فيها المجنون ، لكن العباس معنى  
بحبه يتطهر بنيران هذا الحب الواحد الذي أطل التعبد في محرابه ما ينوف على  
الأربعين عاماً . وهو لا يحاول التخلص من آلام هذا الحب أبداً لأنها آلام  
مقدسة . . هي سر الحياة والوجود لديه ، فإذا قال :

قلبي إلى ما ضرّني داعي يكثر أسقامي وأوجاعي  
كيف احتراسي من عدوّي إذا كان عدوّي بين أضلاعي  
فهو لا يعني أكثر من إلقاء اللوم على قلبه . . تلك المضغة التي يقلبها الرحمن  
كيف يشاء دون أن يكون لنا في الأمر حيلة ؛ حتى إنه ليقول صادقاً إنه يذهب إليها  
وهو يائس الرجاء منها ، لكنه الشوق إلى حبه يدفعه :

أسأت أن أحسنت ظني بكم والحزم سوء الظن بالناس  
يقلّني الشوق فأتيكم والقلب مملوء من الياس  
إنه رجل قد فنى في الحب ، بل هو صنّعه الحب التي يؤثّر الموت في سبيلها ،  
وليس له في الوجود من شغل سواها فهو يقول :

نصيرى الله منك إذا اعتديت وقد عذبت قلبي إذ جفوت  
فإن يك ذا مغايظة لحقد فقد والله يا أملي أشتفيت  
قضى بالفتك حبك في عظامي وصيرني هواك كما اشتهيت  
فلو شاء الذي بكم أبتلاي لعجل راحتي منكم بموتي  
لكن يوجد في أشعار العباس ما يلتقي ظلالاً من الشك على مدى عفته ،  
ويجمل القارئ يتأمل معانيها الخفية ، ويحاول أن يستشف منها ما يبرئ العباس  
من مادية الحب كقوله :

ذكرتك بالتفاح لما شممتُه وبالراح لما قابلت أوجه الشرب

تذكرتُ بالتفاح منك سوالفًا وبالراح طعمًا من مقبَلِكَ العَذْبِ  
لكن هذه الأشعار قلة نادرة لا نستطيع أن نعتمد عليها مع الاستطراد بذكر  
عفته في شعره وتواتر الأخبار عنها ، وخير ما نختم به هذا الحديث هو تلك التمجية  
والأمنية العزيزة التي يدعو إليها العباس :

لو أن القلوب تجازى القلوب لما كان يحفو حبيبٌ حبيباً

---



## ابن الرومي

ما زالت المطابع الغربية والشرقية تخرج الدراسات عن ابن الرومي ، ويفضله المستشرقون على معاصره البحتري لما امتاز به شعره من صدق الشعور والتعبير عن انفعالات الوجدان الصادقة . وقد اتفق الغربيون والشرقيون على وضعه على رأس شعراء المهجاء في اللغة العربية ، ولقبه بعض المستشرقين<sup>(١)</sup> بالشاعر الساخر .

ولقد ولد علي بن العباس بن جريج الرومي ببغداد في الثاني من رجب سنة ٢٢١ هـ ( ٨٣٦ م ) وتوفي عام ٢٨٣ هـ كما جاء في بعض الروايات بنفس المدينة فأدرك في حياته ثمانية من خلفاء العباسيين آخرهم المعتضد ، وعاش في أزهى عصور الأدب والشعر والعلم من حياة تلك الدولة وأشدها صراعاً على الحكم .

عصر حفل بألوان الفتن والثورات وأنواع الدسائس والخيانات « فكان الخلفاء فيه عرضة للغضب والكيده من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الأمراء والوزراء فكانوا عرضة للغضب والكيده من جميع هؤلاء . ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمّنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين<sup>(٢)</sup> » .

وقد انطبعت أحداث هذا العصر في شعر ابن الرومي ، وقدم لنا منها صوراً حية دقيقة الوصف كما فعل في فتنة الزنج التي ثارت بالبصرة :

|                          |                            |
|--------------------------|----------------------------|
| كم أغصّوا من شارب بشرابٍ | كم أغصّوا من طاعم بطعامٍ   |
| كم ضنين بنفسه رام منجّى  | فتلقّوا جبينه بالحسامِ     |
| كم أبٍ قد رأى عزيز بنيه  | وهو يعلى بصارم صمصامِ      |
| كم رضيع هناك قد فطموه    | بشبا السيف قبل حين الفطامِ |

(١) Rhuvon Guest روفون جست في حياة وأعمال ابن الرومي .

(٢) ابن الرومي للعقاد .

كم فتاة بناتم الله بكر فضحوها جهرأً بغير اكتتام  
صبتوهم فسكرت القوم منهم طول يوم كأنه ألف عام  
وقد اشتهر القرن الثالث الهجري بكثرة المذاهب والشيعة في الإسلام وطول  
الجدل حول الآراء المختلفة في الدين ، وكثر الشك والإلحاد ، واتهم الناس في دينهم  
مما حدا بابن الرومي إلى الدفاع عن نفسه إزاء مثل هذه الاتهامات وتوضيح ما يرد  
في شعره من صور الخمر وتأويلها كقوله :

لا المدام الحرام لكن حلالاً سُورنا يحثها طابخان  
فهو لا خمر في الحقيقة لكن هو خمر في الظن والحسبان

ولا شك أن مثل هذه البيئة تشجع على ظهور مصطنعي التدين الذين يختفون  
وراء مظاهر الدين وهم يضمون بين جوانحهم قلوباً لا تحفظ إلا ولا ذمة . وكان  
ابن الرومي يوجس من أمثاله خيفة ، ولا يتورع عن تصويرهم في شعره صوراً ساخرة  
فاضحة كقوله في صاحب الحية طالت :

الحية أهملت فسالت وفاضت فإليها تشير كُ الشير  
ما رأتها عين امرئ ما رآها قط إلا أهل بالتيكبير  
روعة تستخفه لم يرعها من رأى وجه منكر ونكير  
فاتق الله ذا الجلال وغير منكر فبك يمكن التغيير

ولقد انتشرت في تلك البيئة الرشى وعوامل الفساد ، وكان على المرء كي يعيش  
فيها أن يتسلح بسلاح الخبث والدهاء ؛ وهو ما حرمه ابن الرومي فلم تسعفه عبقريته ؛  
وقعدت به طبيعته البسيطة التي لا تعرف الخبث عن بلوغ الآمال حتى قال  
مستنكراً حاله :

أتراني دون الأولى بلغوا الآ مال من شرطة ومن ككتاب ؟

وتجار منل البهائم فازوا بالملئى فى النفوس والأحباب ؟  
 ويظلون فى المنام واللذات بين الكواعب الأتراب  
 لهم المسمعات ما يطرب السا مع والطائفات بالأكواب  
 لطف نفسى على مناكير للنك ر غضاب ذوى سيوف غضاب  
 من كلاب نأى بها كل نأى عن وفاء الكلاب غدر الذئاب  
 أصبحوا ذاهلين عن شجن الناس وإن كان حبلهم ذا اضطراب  
 فى حبير منعم وعبير وصحان فسيحة ورحاب  
 فى ميادين يخترقن بسا تين تمس الروس بالأهداب

وفى القصيدة تصوير رائع للعصر وانصراف القلة المترفة إلى ملذاتها ولهوها ، على حين تنبئ الأغلبية المحرومة تحت وطأة الحاجة والفقر .

ويتحدث النقاد عن ابن الرومى وانفراده بطابع خاص بين شعراء عصره ، ويرجع بعضهم ذلك إلى مزاجه اليونانى ، لكن ابن الرومى لم يكن يونانياً خالصاً بل كانت أمه فارسية كما يقرر هو فى قوله مفاعراً :

وكيف أغضى على الدنية والذلة رس خؤولى والروم أعمامى

ثم كانت نشأته وثقافته عربية خالصة ، فاشتركت بذلك عوامل كثيرة فى تكوين شخصيته ، لكن مما لاشك فيه أن ابن الرومى كان له خيال واسع خصب ، ويملك صورة دقيقة بارعة استطاع أن يسجل بها أحداث عصره ، ويحفظ لنا صورة نابضة بالحياة تصور مجالس اللهو والسمر وما يجرى فيها من شرب وطرب ورقص وقيان أبدع فى تصويرهن فى غير قصيدة ؛ كقوله يصفهن وقد ارتدين ملابس شفت حتى حاكت الهواء أو لاشيء :

من جوار كأنهن جوار يتسلسلن من مياه عذاب

لابسات من الشفوف لبوسًا كالهواء الرقيق أو كالسراب  
ومن الجوهر المضيء سناه شعلا يلتهمن أىّ التهاب  
وقد كثر تردّد ابن الرومي على مجامع الموسيقى والغناء لشغفه بهما وحبّه لهما .  
وقد كان شديد الكلف بالجديد والجديدات حتى أنه رثى بعضهم بأجود شعره .  
ولا يستغرب من شاعر أن يحب الموسيقى وهو الإنسان الرقيق الحس والشعور ،  
السريع التأثر بما يقع تحت حسّه من أحداث .

وإنك لتمحس الألم العميق يفيض به قلبه لما أجبر على ترك منزل له فقال :  
وحبب أوطان الرجال إليهم ماأرب قضّاهم الشباب هنالك  
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنّوا لذلك  
فقد أنفته النفس حتى كأنه لها جسدٌ إنْ بَانَ غُودِرَ هالك  
وهو يعلل هذا الشعور المرفف الذي يتأذى كثيراً بأنه نتيجة طبيعية لما وهب  
من عقل وذكاء :

يا ليت أهل العقل إذ حُرّموا عَصَمُوا من الشهوات والفتنِ  
لكنهم حرّموا وما عَصَمُوا فقلوبهم مرضى من الإحن  
وهم أحس على بليتهم من غيرهم بمرارة الغبن  
ولقد وصف ابن الرومي الطبيعي فأجاد في الوصف وأضفى على صورها من روحه  
حياة عارمة فخلع على مناظرها الحركة والحس ، وأنطقها بالنجوى والحديث الذي  
توسوس به إلى الشاعر العاشق للجمال .

انظر إلى هذا « التابلوه » الحافل واللوحة الكاملة للعروف في روضة من  
رياض بغداد :

إذا رنقت شمس الأصيل ونفّضت على الأفق الغربي ورساً مذعذعا  
( ٤ — في موكب الخالدين )

وودعت الدنيا لتقضى نحبها وشوّل باقى عمرها فتشعشعا  
ولاحظت النوار وهى مريضة وقد وضعت خذاً إلى الأرض أضرعا  
كما لاحظت عواده عين مدنف توجّع من أوصابه ما توجّعا  
، ظلت عيون النور تحضل بالندى كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا  
يراعينها صورا إليها روانيا ويلحظن الحاظاً من الشجو خسعا  
وبين إغضاء العراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعا  
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا  
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى منى الطير فيه فسجعا  
وغرد ربهى الذباب خلاله كما حثمت النشوان صنجا مشرعا

واشتهر ابن الرومى بعد ذلك بالقلب السريع بين الرضى والغضب فهو لا يأن  
ساعته<sup>(١)</sup> وطوع الحاضر من إحساسه ؛ والنوبة الطارئة هى المفتاح الذى يفيض به  
كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة « وهذا ما يوضح أسباب التناقض الذى  
نلقاه فى شعره ، فنحن تارة نسمعه يقول :

فالآن حين أجدّ الشيب يطلبنى أبادر الشيب باللاذات عجلانا  
لسكى يعود فيقول :

فدع شربها إذ أصبح الرأس مشرقاً بمحاذرة أن يصبح القلب مظلاما  
وقد لقي ابن الرومى من حياته صروفاً شتى وتقلبات عنيفة ، فعاش طوراً فى بعة  
واطمئنان وخفض من العيش ، وقاسى بعد ذلك ألواناً من الحرمان وضيق ذات اليد .  
وديوان الشاعر سجل دقيق لـكل ما مرّ به من أحداث حياته اننى تركت فى نفسه

(١) ابن الرومى للعقاد .

آثارها وندوبها العميقة لا سيما عند ما ضُت عليه بأسباب الحياة الكريمة في أواخر أيامه حين قال :

ثوبى الرث والنياب طراء وطعائى برغى المجشوبُ  
ومحلى عاريةً وجــــدارا ت بيوتى فكلها منكسوبةُ  
ومقيلي في الصيف سخن بلا خي ش فعضمى يكاد منه يذوبُ  
وكأنى بالأيام قد آلت على نفسها متابعة ابن الرومى بالحداثات حتى تصهر  
عبقريته وتستخرج أجمل ما عنده من فن ؛ وقد كان الإبداع دائماً وليد الألم العبرى .  
فهو قد مات أبوه وتركه طفلاً ، ثم ماتت أمه عند ما بلغ مبلغ الرجال ؛ وتتابع  
الموت على أسرته فغال أخاه ، ثم أولاده ، وزوجه جميعاً ؛ الواحد بعد الآخر .  
وكان محمد أول من مات من أولاده بعد فقد أبيه ، وكان محمد هذا أثيراً  
عند أبيه ، فكاد الحزن يذهب بلبه . فقال يرثيه في قصيدة طويلة من أروع شعره :

بكاؤك يا شفى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى  
ألا قاتل الله المنايا ورَمِيها من القوم حبات القلوب على عمدٍ  
توخى حمام الموتِ أوسطَ صُنْبِيَتِي فله كيف اختار واسطةَ العقدِ  
على حين شئتُ الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشدِ  
طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب ، قريباً على بعد  
وكاد من شدة حزنه أن يعترض على قضاء الله ويرفض مثوبة احتسابه  
ولو كانت جنة الخلد :

وما سرّنى أن بعتهُ بشوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلدِ  
ولا بعته طوعاً ولسكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من معد  
وإنى وإن مُتعتُ يابئى بعده لذكره ما حنت النيب في نجد

بل إن ابنه هذين سيكونان مبعثاً لتجدد الأحران والذكريات :

أرى أخَوَيْكَ الباقيين كليهما      يكونان للأحران أَوْرَى من الزيدِ  
إذا لعبا في ملعب لك لذَّعا      فؤادى بمثل النار عن غير ما قصدِ  
فما فيهما لى سلوةٌ بل حرازةٌ      يُهيجانها دونى وأشقى بها وحدى

فإذا ما مات ابنه الأكبر هبة الله وقد ناهز الشباب كان رثاؤه نشيجاً وعويلاً  
ونفساً تنفطر وتذهب حسرات من الأسى واللوعة التى لا يرحى معها عزاء بل الموت  
بعده أفضل .

يا حسرتا فارقتى ففَنّاً غصّاً ولم يشمر لى الفَنَنُ  
أُبْنَى إِنْكَ والعزاء معا      بالأمس أنْ عليكما كَفَنُ  
تالله لا تنفك لى شَجَناً      يمضى الزمان وأنت لى شَجَنُ  
ما أصبحت دنيأى لى وطناً      بل حيث دارك عندى الوطنُ

فإذا عُرف عن ابن الرومى بعد كل هاتيك الأحداث أنه كثير الطيرة ، شديد  
الإيمان بالتشاؤم ، وبتأويل الألفاظ فهلاً يلتبس له عذر ؟ وهو كان يعيش فى عصر  
فسا فيه التنجيم ، وآمن الناس جميعاً بالطوائع والنجوم . ومع ذلك فإن طيرة  
ابن الرومى لم تخلُ من صور مرحة ساخرة كقوله يهجو ابن طالب الكاتب :

أزيرق مشمومٌ ، أحيمر قاشرٌ      لأصحابه ، بخسٌ على القوم ثاقبُ  
وهل أشبه المَرِيخَ إلا وفعله      لفعل نذير السوء شبهً مقاربُ  
وهل يتامى الناس فى شؤم كاتب      لعينيه لون السيف والسيف قاضبُ

بل إن ابن الرومى متعلق بالحياة وملادها رغم ما يلاقيه فيها من نصب وبلاء ،  
ورغم علمه أنها تسير به الموت ، وهو يعلم أن جمال الحياة فى شبابها ؛ لذا كثر تفجعه  
وتلفته إلى عهد الشباب الذى لا عزاء بعده إلا بالموت نفسه :

فأنى عزاء عن شبابى علمته سوى أننى من بعده لا أخلدُ  
وأن مشيى واعد بلحاظه وإن قال قوم إنه يتوعدُ  
وهو يأسى على ما فات مع الشباب من لهو النساء وإعجابهن الذى حل محله  
الإعراض والتعجب ، ويصور لنا كل هذه المشاعر فى صورة واقعية فكلمة  
حيث يقول :

أيام لهوى هل مواضيك عودُ ؟ وهل لشبابٍ ضل بالأمس منشُدُ ؟  
أقوم وقد شابت شواتى <sup>(١)</sup> وقوست قفائى وأضحت كدنتى <sup>(٢)</sup> تتخذ  
ولدت أحاديثى الرجال وأعرضتْ سُلَيْمَى وربّا عن حديثى ومهددُ  
وبدلّ إعجاب الغوانى تعجباً فمن روانٍ يعتبرن وصددُ

وقد كثرت الفكاهة اللطيفة والنكتة البارة فى شعر ابن الرومى ، وكان مرجع  
ذلك إلى روح ساخرة تجيد السخر ، وتبالغ فى التصوير الساخر ؛ حتى إذا ما تعرض  
لذكر نفسه فإنه لا يرحمها من سخريته . . . استمع إليه يصف نفسه وهلمه من  
السفر بحراً :

فأما بلاه البحر عندى فإنه طوائى على روع من الروح واقب  
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير ثائب  
ولم لا ؟ ولو ألقيتُ فيه وصخرة لوافيتُ منه القعر أولَ راسبٍ  
ولم أعلم قط من ذى سباحة سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب  
فأيسر إشفاقى من الماء أننى مرث به فى الكوز مر الجانب  
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب

(١) الشواة : جلدة الرأس .

(٢) الكدنة : الشحم واللحم .



وَيَصِفُ أَكْلَ الْمَوْزِ فَيَقُولُ :

يَكَادُ مِنْ مَوْقَعِهِ الْمَحْبُوبِ يَدْفَعُهُ الْبَلْعُ إِلَى الْقُلُوبِ  
وَهُوَ يَدَاعِبُ صَدِيقًا لَهُ وَعَدَهُ بِأَكْلَةِ سَمَكٍ كُلِّ سَبْتٍ ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَفَ وَعَدَهُ  
فَيَسْأَلُهُ الشَّاعِرُ :

مَا لِحَيَاتِنَا جَفَّتْنَا وَأَنْتَى أَخْلَفَ الزَّائِرُونَ مُنْتَظَرِيهِمْ  
فَدَأْرَحْنَا اعْتِلَالَهُمْ وَجَعَلْنَا سَمِيَّتَهُمْ جَمْعَةً فَمَا يَشْكِيهِمْ ؟  
جَاءَنِي السَّبْتُ زَوْرَهُمْ فَأَتَيْنَا مِنْ حِفَازٍ عَلَيْهِ مَا يَكْفِيهِمْ  
وَجَعَلْنَاهُ يَوْمَ عِيدٍ عَظِيمٍ فَكُنَّا الْيَهُودَ أَوْ نَحْكِيهِمْ  
وَاحْتَمَلْنَا مَقَالَةَ النَّاسِ فِينَا وَلَهُمْ كُلُّ مَا احْتَمَلْنَا وَفِيهِمْ

وَتَشِيعُ السَّخَرِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي شَعْرِ ابْنِ الرُّومِيِّ وَقَدْ أَنْتَ نَتِيجَةُ طَبِيعِيَّةٍ لِهَذَا الْمَزَاجِ  
الْمُضْطَرِّبِ وَالنَّفْسِ الْمُرْسَلَةِ الَّتِي لَا تَقْنَعُ إِلَّا بِالْمُبَالَغَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ . . . الْمُبَالَغَةُ فِي اللَّهِ  
وَفِي الْأَكْلِ وَفِي الدَّرْسِ وَفِي الشَّهَوَاتِ . . . ثُمَّ لِهَذَا الْعَصْرِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ ، وَالَّذِي  
جَمَعَ بَيْنَ بَرْدِيَةِ التَّنَاقُضَاتِ كُلِّهَا مِنْ عِلْمٍ وَجَدَلٍ وَفَقْهِ وَفَلَسَفَةٍ وَفَسَادٍ فِي السِّيَاسَةِ وَتَكَالُفٍ  
عَلَى اللَّهِ وَتَصَوُّفٍ وَزُهْدٍ وَظَاهِرٍ يَخَالِفُ الْبَاطِنَ . . . حَتَّى وَجْهَ الشَّاعِرِ نَفْسُهُ يَرَى فِيهِ  
التَّنَاقُضَ فَيَسْخَرُ مِنْهُ :

شَغِفْتُ بِالْخُرْدِ الْحَسَانَ وَمَا يَصْلِحُ وَجْهِي إِلَّا لَذَى وَرَعٍ  
كَيْ يَعْبُدَ اللَّهُ فِي الْفَلَاةِ وَلَا يَشْهَدُ فِيهَا مَشَاهِدَ الْجَمْعِ

وَأَنَّهُ لِيَصِفُ الْأَشْكَالَ وَالْحَرَكَاتَ فَيَأْتِي لَنَا بِصُورٍ كَارِيكَاتِيئِيَّةٍ فِي غَايَةِ الْإِبْدَاعِ  
وَالْإِتْقَانِ . . . اسْتَمَعَ إِلَيْهِ يَصِفُ الْأَحْدَبَ — وَلَا يَرْحَمُ عَاهَتَهُ — فَكَانَهُ رَجُلٌ  
يَتَضَادَّلُ لِيَتَقَى صَفْعَةً عَلَى قَفَاهُ .

قَصُرَتْ أَخْدَاعُهُ وَطَالَ قَدَّالُهُ فَكَانَهُ مَتَرَبِّصٌ أَنْ يُضْفَعَا  
وَكُنَّا صُفِّعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحْسَنَ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

وهذه الصورة السكاريكاتيرية لا شك في أنها نوع من الهجاء الذي اشتهر به ابن الرومي وأقذع فيه حتى صار أشهر شعراء الهجاء في عصره . . . لقد بالغ به الأمر أن هجا الناس جميعاً لأنهم لا يفهمون شعره بأخفش الهجاء في قوله :

بحقهم إن باعدوني وقرّبوا      سوى وتقريب المبعاد أوجبُ  
خفافيش أعشاها نهارٌ بضئِئِه      ولازمها قطع من الليل ينهب  
بهاؤم لا تصغى إلى شدة معبد      وأما على جافى الغناء فتطرب  
وأنه ليهجو أبا سليمان المغنى فبصفه بأنه عفريت الصغار ، ويقذع في هجومه ؛  
لكن الصورة لا تخلو من فكاهة مؤلمة :

يشدو بصوت يسوء سامعه      تبارك الله باري النّسم  
أبحّ فيه شدوذ حشرجة منظومة      في مقاطع النغم  
يفزع الصبية الصغار به      إذا بكى بعضهم ولم ينم  
لكنه في هذه الصورة للبخیل يبالغ في السخرية حتى يصوره لنا يتنفس لفرط  
شحه من منخر واحد وهى لا شك صورة رائعة مبتكرة :

يقتر عيسى على نفسه      وليس بباقي ولا خالد  
فلو يستطيع اتقتيره      تنفّس من منخر واحد

حتى القيم الدينية لم تنج من سخريته فهو يقول للتائب العائد بالله :  
لا تخلط الحب بالتقوى      على المقاسى عذاب البحر والبين  
ولم نبع قط دنيانا بأخرة      ومثلنا لا يبيع النقد بالدين

وانتختم هذا الحديث بالإشارة إلى مكانة المرأة في حياة ابن الرومي . والراجح  
عما جاء في شعره وظروف بيئته أنه لم يعرف — فيما خلا زواجه — القيان اللاتي  
كان يتردد الناس عليهن للهو وللطرب ؛ لذلك فـكل ما جاء في شعره عن المرأة

وصف واقعى لحقيقة مفاتها رغم اللوحات التى تنم — فى بعض الأحيان — عن  
افتتانه بالجارية الموصوفة كقوله فى وحيد المغنية :

يا خليلي تيمّنى وحيدُ فقؤادى بها معنى عميدُ  
غادة زانها من الغصن قدُّ ومن الظبي مقلتان وجيد  
وزهاها من فرعها ومن الخديّ بن ذاك السواد والتوريد  
أوقد الحسن ناره فى وحيد فوق خديّ ما شابهُ تخديدُ  
فهى بردٌ بخدّها وسلام وهى للعاشقين جهد جهيد  
لم تضرّ قط وجهها وهو ماء وتذيب القلوب وهى قديد  
ما لما تصطليه من وجنتيها غير ترشاف ريقها تبريد  
مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الوجه لولا الإباء والتصريد<sup>(١)</sup>

---

(١) الشرب دون الرى .

## الشريف الرضي

وأبك عني فطالما كنت من قبـ ل أعير الدموع للعشاق  
بهذا البيت من الشعر لخص الشاعر حياته أبلغ تلخيص ، تلك الحياة التي طال  
فيها بكاؤه حتى اضطر لأن يستعير دموع الناس . . فهي لم تجر هنيئة إلا في القليل  
وكانت في أغلبها قاسية على ذلكم الشاعر الشاب الذي عاجلته المنية عام ٤٠٦ هـ للهجرة  
وهو في السابعة والأربعين من عمره أكل ما يكون قوة وفتوة بعد حياة حافلة بشتي  
الأحداث والخطوب والأجساد والكرب . فهو قد ولد ببغداد عام ٣٥٩ هـ لأبي أحمد  
الموسوي نقيب الأشراف — وهو اللقب الذي فاز به الرضي — فيما بعد — شريفاً في  
أسرة علوية كريمة عريقة في النسب ، فكان يدل على الناس بهذا الأصل ،  
ويفخر بتلك الصلة على الناس حتى أنه قال يوماً معرضاً بحكومة الخليفة القادر بالله .

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف حمى  
وإباء مخلقى عن الضميم كما راغ طائر وحشى  
أى عذر له إلى المجد إن ذلّ (م) غلام فى غمده المشرقى  
ألبس الذل فى ديار الأعادى وبمصر الخليفة العلوى  
من أبوه أبى ، ومولاه مولاى ، إذا ضامنى البعيد القصى  
لف عرق بهرقه سيد الناس جميعاً محمد وعلى  
قد يذل العزيز ما لم يشمر لانطلاق وقد يضم الأبنى

وهو قد حرص على مكانة هذه الأسرة وهذا النسب الشريف فاجتهد فى  
تحصيل العلم حتى بلغ مكانه بين العلماء ، وألف كتب ( حقائق التأويل فى متشابه  
التنزيل ) و ( مجازات الآثار النبوية ) و ( تلخيص البيان من مجازات القرآن ) ،  
وغيرها مما ضاع معظمه وفقدته المكتبة العربية .

وقد زاد من حرصه على تحصيل العلم تطلعه إلى الخلافة ورغبته في الاتصال بأقطاب الزعماء في الحواضر الإسلامية إلى جانب أمنيته في أن يكون إمام الشعراء .

وقد كان له العذر كل العذر من العصر الذي نشأ فيه ، ففي القرن الرابع الهجري شهدت اللغة العربية نهضة أدبية امتد أثرها إلى يومنا هذا ، كما ازدهى العصر ببحوث العلم وجدل الفلاسفة ، وأوغل الناس في الحضارة ، وأجاد العلماء ، ولم يعد الناس يقنعون بالمواهب الفطرية كأسلافهم بل ذهبوا يصقلون مواهبهم بالدراسة والعلم ؛ حتى الخلفاء والملوك نبغ منهم الشعراء والعلماء .

وكان العراق خاصة روضة من أجمل رياض الشعر ، ومتميزها لفحول الشعراء أمثال السامى وابن سكرة وابن حجاج ، كما كان مسرحاً للفتن والأحداث تثيرها أهواء السياسة ونوازع السلطان .

لقد عاصر الرضى تلك الثورة التي قامت بين انديلم والأتراك وعادت على العراق بأبشع ألوان الوحشية والخراب ... لقد أبيضت في تلك الثورة مدينة الكرخ فدام فيها الحريق أكثر من أسبوع ، وأحرق الرجال والنساء في الدور والحمامات . لكن الحادثة التي أثرت في نفس الرضى أبلغ الأثر هي سجن أبيه عام ٣٦٩ هـ ومصادرة أملاكه ، وكان شاعرنا لم يتجاوز العاشرة من عمره ، فتفجرت شاعرية الغلام الذي تفتحت عيناه على فواجع الحياة وأحداث الزمان .

وتقدم الشريف الرضى في عالم الشعر سريعا ، وأصبحت له شخصيته المميزة التي تستهويها المعاني المجردة عن الحوادث الدامية ، وتؤثر الحديث عن أزمت النفس والوجدان على الحديث عن أحداث النزال والطعان والحسوس من اللذات والأفعال . ولقد أحس شاعرنا بعمق ريمه الشعرية التي لم تظفر بمظهرها الواجب من التقدير من معاصريها ، فراح يؤكدها في شعره في مواضع كثيرة ، ويرى أن هذه العبقرية لها من القوة آمالا تقاس إلى جانبه قوة السلاح :

له قلمٌ إن جرى غزبهُ أَمِنَّا القنأ وخشينا اليراءا  
وهى كغيلة بتحقيق المجد :

ألا من كنت شاعرهُ فإن المجد شاعرهُ  
وإن اللفظ مطروحٌ على فكرى جواهرهُ

وهو فى البيت الأخير يمتاز بقدرته اللغوية الفائقة على امتلاك ناصية اللغة .  
ولم يكن الشريف يرضى بالشعر وعامته فحسب ، بل كان طموحه لا يقف عند  
حد وهو يغذى هذا الطموح بشعره ويذكر نفسه أبدأ بأحلام المجد ويتزعم بأمانيه  
ويرسم بشعره الطريق إلى تحقيق هذه الأمانى كان يقول :

اشتر العز بما به مع فما العز بفال  
بالقصار الصفر إن شئت أو السمر الطوال  
ليس بالمغبون عقلا من شرى عزاً بمال  
إنما يدخر المال لحاجات الرجال  
والنتى من جمل الأم سوا أئمان المعالى

ويقول :

ولى أمل كصدر الرُمح ماضٍ سوى أن اللإلى من خصومى  
ويعنى المدام طروقٌ هى فما يحظى بها إلا ندى  
وما أوفت على العشرين سنى وقد أوفى على الدنيا عزى<sup>(١)</sup>

وحديث الشريف عن المجد والفخر بنفسه وقدرته وجبروته حديث يطول  
ويثبت فى أنحاء ديوانه وعلى مر سنى حياته ، وفيه ذكرى تنفع الشباب الطامحين  
كقوله :

(١) مذكر عزيمة .

سأَمْضَى لِلَّتِي لَا عَيْبَ فِيهَا وَإِنْ لَمْ أَسْتَفِدْ إِلَّا عَنَاءَ  
وَأَطْلُبُ غَايَةَ إِنْ طَوَّحْتَ بِي أَصَابَتْ بِي الْحِمَامُ أَوِ الْعَلَاءُ  
أَنَا ابْنُ السَّابِقِينَ إِلَى الْمَعَالَى إِذَا الْأَمَدُ الْبَعِيدُ ثَنَى الْبِطَاءُ  
إِذَا رَكَبُوا تَضَايَقَتْ الْفِيَاثُ وَعَظَلُ بَعْضُ جَمْعِهِمُ الْفَضَاءُ  
نَمَانِي مِنْ أَبَاةِ الضِّمِّ نَامٍ أَفَاضَ عَلَيَّ تِلْكَ الْكِبْرِيَاءُ  
شَأُونَا النَّاسُ أَخْلَاقًا لِدَانَا وَأَيْمَانًا رَطَابًا وَاعْتِلَاءُ  
وَنَحْنُ النَّازِلُونَ بِكُلِّ ثَعْرٍ نُرِيقُ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمَاءُ  
وَنَحْنُ اللَّابِسُونَ لِكُلِّ مَجْدٍ إِذَا شَدْنَا أَدْرَاعًا وَارْتَدَّاءُ  
أَقْنَا بِالتَّجَارِبِ كُلِّ أَمْرٍ أَبِي إِلَّا اعْوَجَاجًا وَالتَّسَوَاءُ

لكن شاعرية الشريف لم تقف عند حدود الفخر والمعالى وأطعماءه في دنيا  
السياسة والجاه ، بل كانت شاعرية فياضة يرفدها خيال خصب واسع أنطق الصخر  
والرياح والأطلال ، وكان حديثه متصلًا مع الطبيعة والزمان وكلما اتصل بذكرى من  
ذكريات حياته العارمة . . . استمع إليه يصف تلك النجوم الغزلة والرياح التي تمر  
بالدار فتتلفت إلى ما فيها :

كَلِّفْنِي إِلَى لَيْلِ كَأَنَّ نَجْمَهُ تَغَاوَزَ طَرْفِي عَنْ عَيُونِ الْجَاذِرِ  
أَمْرٌ بَدَارٍ مِنْكَ مَشْجُوجَةٌ الثَّرَى بِمَجْرَى نَسِيمِ الْآنَسَاتِ الْغَرَائِرِ  
تَمَرُّ عَلَيْهَا الرِّيحُ وَهِيَ كَأَنَّهَا تَلَقَّتْ فِي أَعْطَافِ تِلْكَ الْمَقَاصِرِ

بل هو لا يرى في العراق وبغداد سوى معاني الحب والهوى والأشواق  
والحنين إلى ذكرياته في تلك الربوع الحبيبة إلى قلبه الذي يرى بغداد وهو في  
أرض الحجاز :

أَنْطَلُبُ يَا قَابِلِي الْعِرَاقَ مِنَ الْحُمَى ؟ لِيَهْنِكَ مِنْ مَرْمَى عَلَيْكَ بَعِيدُ

وأن حديث النفس بالشئ دونه رمال النقا من عاجل<sup>(١)</sup> لشديد  
 ترى اليوم في بغداد أندية الهوى لها مبدئ من بعدنا ومُعِيدُ  
 فن واصف شوقاً ومن مُشتكٍ حشا رَمَتْهُ المرامي أعينٍ وخدودُ  
 وأن التفات القلب من بعد طرفه طوال الليالى نحوكم لَيَزِيدُ  
 ولما تدانى البين قال لى الهوى : رويداً ! وقال القلب : أين تريد ؟  
 أنطمع أن تسلى على البعد والنوى وأنت على قرب المزار عُمِيدُ

وقد امتاز ديوان الرضى بميزة أخرى هى تلك الحكمة التى يرسلها على الناس  
 فى غير تكلف ولا اصطناع ، والتى يفيض بها ديوانه فى مواضع عديدة . وإنى  
 لأرجع هذه الظاهرة إلى أثر حادثة سجن أبيه ومصادرة أملاكه التى انتقلت به من  
 العيش الرغيد إلى الفقر الشديد فى رعاية أمه التى أفقت مالها فى رعاية أبنائها  
 وتلشتهم ولم ترض عنهم بشئ مما ملكت يداها .

لقد زلزلت تلك الحادثة حياة الرضى ، وتركته أمام الحياة وجهاً لوجه وهو يعد  
 طفل ، فأخذت عيناه تتفتح على حقائق الدنيا وخلائق المجتمع والناس .  
 وهل أباح من الفقر مدرسة تنطق الحكمة وتكشف كل طلاء زائف عن وجه  
 الحياة ، ولعل أول كشف أدركه الرضى هو ما سجله فى قوله :

إذا قلّ مالى قلّ صَحْبِي ، وإنّ نَمَاً فلى من جميع الناس أهلٌ ومرحبُ  
 ثم قوله :

يغرُّ الفتى ما طال من حبل عمره وترخى المنايا برهة ثم تجذبُ  
 واستمع إليه يمزى النفس عن السجن بقوله :

كل حبس يهون عند الليالى بعد حبس الأرواح فى الأجسادِ

(١) اسم منطقة رملية .



وكيف تهدأ نفس الرضى وهو فى حرب مع الزمان أبداً ؟

يقولون نَمُ فى هدأة الدهر آمناً فقلت وَمَنْ لى أن يهادِنى الدهرُ ؟  
هل الحرب إلا ما تَرَوْنَ نقيصةً من العمر أو عدمٌ من المال أو عسرُ

بل إن نفسه ذاتها من أعدائه الذين يفاصبونه العدا :

النفس أذنى عدوٍ أنت حاذره والقلب أعظم ما يبلى به الرجلُ  
لكن تمهلوا أيها الناس :

ولا تَزَرَعُوا شَوْكَ الْقَتَادِ فإنكم جديرون أن تدموا به وتُشاكوا

وفى الثامنة عشرة من عمره يطلع الرضى على الذس بقصيدة يشكو بها دهره ،  
وينثر فيها حكمة الشيوخ وخلاصة تجارب الحكماء ، نجتزئ منها بهذه الأبيات :

بلوت وجربت الأخلاء مدة فأكثر شيء فى الصديق ملالُ  
وما صحبك الأوفون إلا أباعدُ إذا قلَّ مالٌ أو نَبَتْ بك حالُ  
ومن لى بخلٍ أرأضيه ، وليت لى يميناً يعاطيها الوفاء شمالُ  
تميل بى الدنيا لى كل شهوة وأين من النجم البعيد منال ؟  
وتسلبنى أيدى النوائب تروى ولى من عفاى والتقنع لُ  
أرى كل زاد ما خلا سداً جوعة تراباً وكل الماء عندى  
ومثلى لا يأسى على ما يفوته إذا كان عقبى ما ينالُ  
كأننا خلقنا رضىة لمنية فنحن إلى داعى المنون  
وأنعم م الحياة بهائم وأثبت منا فى التراب جبال

يقول الدكتور زكى مبارك فى وصف نكبة الرضى : « وزاد فى هول تلك المأساة  
أنها صادفت فتى رقيق الحس ، برهف القلب ، شاعر الروح ، فصيرته وتراً حناناً  
يمجد تصوير الأذى وترجيع الأنين » .

وقد كان الرضى كذلك . وأول تفجعه كان من أجل أبيه السجين . . استمع إليه يصف حاله بغيبة أبيه :

لما ذكرتكَ عاد قلبي شوقه فبكين عنه مدامع الأفلام  
خلقتني زرعاً فطلت وإنما ذلك الغرار نى<sup>(١)</sup> إلى الصمصام  
أكدت<sup>(٢)</sup> على الأرض من أطرافها وتدرّعت بمدارع الإظلام  
وعهدتها خضراء كيف لقيتها أبصرت فيها مسرحاً لسوامي  
أذكو وأكتم بعض ما أنا واجدٌ فأعاف أن أشكو من الإعدام<sup>(٣)</sup>

وقد انتقل هذا التفجع وتلك اللوعة إلى أشعاره في الحب والغزل التي اشتهرت بصدق العاطفة واحتدام الوجد ، لكنها امتازت إلى جانب ذلك بميزة فريدة صبغت الكثير من غزله ؛ تلك هي الحرب العنيفة القائمة في نفس الرضى بين العفة والانطلاق . . . بين ترك النفس على هواها وبين التصون والتحرز استعداداً للمركز للأمول في رئاسة العلويين أو الوزارة أو الخلافة . . . بين قلبه وطبيعته البشرية وبين آماله وطموحه إلى مراكز تتطلب الحلم والوقار .

تأمل هذه الأبيات التي يفضح بها نفسه ويعترف بأنه : اتى الجمال متصنعاً التجهّم في حين يفيض قلبه وجداً ورقّة .

ومقبّل كفى وددت لو أنه أوما إلى شفتي بالتقبيل  
جاذبته فضل العتاب وبيننا كبر الملل وذلة المملول  
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عقد الجمال بقرطو<sup>(٤)</sup> محلول  
جذلان ينفذ من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول

(١) حد السيف .

(٢) غلظت .

(٣) الفقر .

(٤) نوب رقيق .

من لى به والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل

لكنه عندما يشوب إلى نفسه يدافع عن وقاره بمنل قوله :

وأكذب بالتصّون مدّعيهم وألجم قائلهم بالعفاف

لكن الحقيقة أن الرضى كان يدارى الناس وهو يحمل هوى عنيّفاً بين أضلعه . . . أليس هو القائل :

أنا الفداء لظي ما اعترضت له إلا وهتك شوقاً ما أستره

لاحظته والنوى ترمى ملاحظه بعارض من رشاش الدمع يطره

ما انفك من نفس للوجد يكتمه تحت الضلوع ومن دمع يوفره

أهوى إلى يدأ عقد العناق بها والبين يعذله والحب يعذره

وقال : تذكر هذا بعد فرقتنا ؟ فقلت : ما كنت أنساه فأذكره

ولا يرى الرضى مندوحة من استعمال الرمز في أشعاره ، فإذا قال : آل ليلى :

فربما كانوا آل بثينة أو سواها ، وإذا قال : « أراك الحمى » ، فلهله يقصد أى مكان سواء كقوله :

يا أراك الحمى ترانى أراكا أى قلب جنى عليه جناكا

أعطش الله كل فرع بنما ن من الماطر الروى وسقاكا

أى نور لنظرى إذا ما مرّ يوم ونظرى لا يراكا

لا يرى السوء من رآك مدى الد هر وحيّا الإله من حيّاكا

ورعى كل عاشق لك دلّة ه صبا طلة على ربّاكا

أو قوله :

عشقت ومالى يعلم الله حاجة سوى نظرى والعاشقون ضروب

ومالى ياليماء بالشعر طائل سوى أن أشعارى عليك نسيب

أحبك حبًّا لو جزيت ببعضه أطاعك منى قائد وجنيبُ  
وفى القلب داء فى يدك دواؤه ألا رب داء لا يراه طبيب  
فهل حقاً أن الرضى لم يكن يروم من معشوقته سوى النظر ؟ أم تراه كان  
— كما قال بعض نقاده — يعشق العشق ويحب الحب ويقول الشعر فى النساء كما  
قال ابن الفارض الشعر فى الخمر دون أن يتذوقها .

هل كان الرضى يعيش فى عالم خاص به من صنعه . . . عالم يمهـر الناس  
فيه بالآذان :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى فلعلى أرى الديار بسـمى  
ويتحدث فيه النفس :

خذى حديثك عن نفسى من النفسِ وجد المشوق المعنى غير ملتبسِ  
الماء فى ناظرى والنار فى كبدى إن شئت فاغترفى أو شئت فاقتبسِ  
لا . . . إن الشريف الرضى قد لفعه الهوى وصهر قلبه بناره وأذاب نفسه حتى  
صارت هواء تحمله الريح لتلقى به من أحب :

خذى نفسى ياريح من جانب الحمى فلاقى به ليلاً نسيمَ رُبى نجدِ  
فإنَّ بذاك الحى إلغاً عهدته وبالرغم منى أن يطول به عهدى  
بل استمع إلى هذا التصوير الواقعى الرائع لهذا اللقاء اللطيف الذى ينم عنه  
الطيب ، ويشى به البرق ، وتغار منه الطبيعة جميعاً :

وأمت الريح كالغبرى تجاذبنا على الكتيب فضول الریط والامر  
يشى بنا الطيب أحياناً ، وآونة يضيئنا البرق مجتازاً على إضم  
وأكرم الصبح عنها وهى غافلة حتى تكلم عصفور على علم  
ولعل من ألوان التفجع والأسى الأخرى الفريدة فى ديوان الرضى سرثياته  
( ٥ - فى موكب الخالدين )

في النساء على قلة احتفال العرب في عهده برثاء النساء ، ولعل لأمه التي رعته في  
نسكته ، وكانت تقيه النواذب ؛ الفضل الأول في ظهور احتفال الرضى بالنساء  
وتقديره لمن حق قدرهن فكان رثاؤه لها من أبلغ مرانيه :

فبأى كف أستجنُّ وأتقى      صرف النواذب أم بأى دعاء  
ومن الممول لى إذا ضاقت يدي      ومن المعلل لى من الأدواء  
ومن الذى إن ساورتني نكبةً      كان الموقى لى من الأسواء  
لو كان يُبلغك الصفيح رسائلى      لو كان يُسمعك الترابُ ندائى  
اسمعت طول تأوّهى وتفجّجى      وعلمت حسن رعايتى ووفائى  
كان ارتكاضى فى حشاك مسبباً      ركض الغليل عليك فى أحشائى

ولا يسعنا أن نختم هذا الحديث دون أن نذكر حجازيات الشريف التى دان  
بها أدب العرب ، والتى قالها فى أما كن لا يحل فيها الرفث ولا الفسوق ، وقالها  
وهو نقيب الأشراف وإمام الحج ؛ لكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه  
العواطف ، وجاش بها وبفورانها فما استطاع لها كتماناً ، فأرسلها ترانيم تحلّت  
بصفاء الروح وسمو العاطفة ، فغفر له معاصروه هتافه للجبال وإشادته بصبوات نفسه  
ولوعات هواه .

ولنصنع معاً إلى بعض هذا النشيد من الحجازيات الذى يوضح مناسك الحج  
فى شعر مرقص مطرب ، وكأنى به قد وضعه الرضى ليحدو به الحادى ركائبه فى ليالى  
الصحراء بين العراق والحجاز :

من مُعيدٌ لى أيا      من يجزع السمرات<sup>(١)</sup>  
وليــــــــــــــــالى      يجمع      ومنى والجــــــــــــــــرات

وظباء حاليــــــــــــــــات كظباء عاطــــــــــــــــلات  
 رأمحات في جلاليــــــــــــــــب الدجا مختمرات  
 راميات بالعيون النجل قبل الحصبات  
 ألعقر القلب راحوا أم لعقر البدنات  
 كيف أودعت فؤادى أعيناً غير ثقات  
 أيها القانص ما أحسنت صيد الظبيات  
 فأتك السرب وما زوّدت غير الحسرات  
 موقفاً يجمع فتية ن الهوى والفتيات  
 تتشاكى ما عنانا بكلام العــــــــــــــــبرات  
 كم نأى بالنفر عنا من غزال ومهابة  
 آه من جيد إلى الدار كثير اللفتات  
 وغرام غير ماضٍ بلقــــــــــــــــاء غير آت

ولكن أى مناسك الحج لا يحمل له الرضى ذكرى جميلة فى قلبه ؟ تأملوا  
 معى هذه الآيات ومنها تدركون المعانى التى تدور حولها الحجازيات . . إنها  
 ذكريات تخلف دائماً لوعة فى قلبه لأنها غرس لحظات قصار يعقبها مدى الدهر رغم  
 حساسية الرضى الشديدة للجمال وتدلّه المغرق فى عبادة الحسن الذى يجمع له موسم  
 الحج ألوانه العجيبة من مختلف بقاع العالم :

ألا يالالى الخيف هل يرجع الهوى إليــــــــــــــــكن لى لاجازكن ندى القطار  
 فيا دين قلبى من ثلاث على منى مضين ولم يبقين غير جوى الذكر  
 ورامين وهنا بالجار وإنما رموا بين أحشاء الحبين بالجر  
 رموا لا يبالون الحشا وتروّحوا خليين والرامى يصيب ولا يدرى

وقالوا غداً ميعادنا النفر عن منى وما سرى أن اللقاء مع النفر  
ويا بؤس للقرب الذى لا نذوقه سوى ساعة ثم البُعاد مدى الدهر

إن هذه الذكريات لا تفتأ تعاوده في العراق ، بل إن سهامها تصيب قلبه  
من مكة :

يا ظبية البان ترى في خائله ليهنك اليوم أن القلب مرعك  
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمع الباكي  
هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برياك  
ثم انثنينا إذا ما هزنا طرب على الرجال تعللنا بذكراك  
سهم أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت صرماك  
أنت النعيم لقلبي والعذاب له فما أمرك في قلبي وأحلاك  
عندى رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك  
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى من علم العين أن القلب يهواك  
يا حبذا نفحة صرّت بفيك لنا ونظفة غمست فيها ثنياك

أنا لا أريد أن أظلم الشريف ، لكن تأملوا هذه الأبيات الحيرة التي تحمل  
صوراً من الواقع والخيال . . . من المسادة والروح إلى أيهما تنتمى :

والمستنى وقد جدّ الدواع بنا كفأ تشير بقضبان من العَمِّ<sup>(١)</sup>  
وألتمنى نقرأ ما عدلت به أرى الجنى<sup>(٢)</sup> بينات الوابل الرّزيم<sup>(٣)</sup>  
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا وفي بواطننا بعد من التهم

(١) شجرة حجازية ذات ثمار حمراء .

(٢) عصير الفواكه ممزوج بماء الغيث .

(٣) المتدفق .

وحبذا نهلة من فيك باردة يُعدي على حرّ قلبي بردها بفي  
عجبت من باخل عنى بريقته وقد بذلت له دون الأنام دى  
الحجازيات معجزة الشريف الرضى التى بلغ بها الذروة فى الشعر ، وقد ختمها  
بقصيدة يائية قالها وقد عجز عن اللحاق بالحجيج :

أقول لركب رائحين اهلكم تُحلّون من بعدى العقيق اليمانيا  
خذوا نظرة منى فلاقوا بها الحمى ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا  
وصروا على أبيات حى برامة فقولوا لديغ يبتغى اليوم راقيا ..  
فوا لهفتى كم لى على الحى شهقة تذوب عليها قطعة من فؤاديا  
فيا جبل الريان إن تعرّ منهم فإنى سأكسوك الدموع الجواريا  
أعبروا الرضى دموعكم ليكسوها جبال الذكريات فلطالما أعار العاشقين دموعه -



## المتنب

وَأَيُّ لِمَن قَوْمٌ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ بِهَا أَتَتْ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ  
فَلَا عَبَّرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعْزِنِي وَلَا صَحْبَتِي مَهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَ

وَمَنْ غَيْرَ الْمُتَنَبِّي يَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ كُلِّ هَذِهِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْفُرُورِ ، وَمَنْ غَيْرُهُ يَفِيضُ  
شَعْرُهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشَّرَاسَةِ وَالْقُوَّةِ وَالتَّحَدُّى . . . التَّحَدُّى لِلنَّاسِ ، وَالتَّحَدُّى لِلظُّرُوفِ  
الَّتِي نَشَأَ فِيهَا ، وَالتَّحَدُّى لِلْبَيْئَةِ الَّتِي وَلَدَ فِيهَا .

وأية بيئة كانت تلك ؟ لقد ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ  
في محلة تسمى كنفدة ينسب إليها ، والعراق يومئذ يمور بالفتن والدسائس والظلم الاجتماعي  
والانحلال الخلقي ؛ فالدماء مستباحة ، والحرمان منتهكة ، والرشى متفشية ، والثورات  
تتوالى ؛ فاثورة البابلية في أول القرن الثالث ، وثورة الزنج في أواسط ذلك القرن ،  
وثورة القرامطة في آخره وأثناء القرن الرابع ورقة الإمبراطورية الإسلامية يتنازعها  
الولاة والمغامرون الطامعون ، وكل شيء حوله لا يقر له قرار ، على حين بلغت الحياة  
الثقافية أرقى مدى ، وأخذت الثقافة الإسلامية والعلم العربي والفن الشرق توثى  
أشهى ثمارها وأروع إنتاجها . وقد فشا العلم بين الناس بمختلف طبقاتهم ، فسمت كل  
طبقة بنظرها ترجو أن تظفر بما يحسن أحوالها ، وكثر ظهور المغامرين الطامحين إلى  
المجد والعلى .

وسط هذه البيئة ولد أبو الطيب لأبوين فقيرين ، وقيل إن أباه كان سقاء ؛  
لكن أبا الطيب اختلف إلى المدرسة ، واتجه إلى العلم ، وطمحت أبصاره منذ الصبا  
إلى المجد . وكان شعوره عميقاً بهوان منبته ، فتجاهل هذا الأصل في ديوانه  
تجاهلاً تاماً ، وحاول أن يفرض على الزمن شخصيته ، وأن يقنع العالم بجدارته لأن  
تشرف به الأقدام لا أن يشرف هو بالانتساب إلى أحد :

لا بقَوْمِي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بِي وبنفسي فخرْتُ لا بمجدودي  
وهو لم يذكر أحداً من أهله في ديوانه سوى جدته لأُمه التي حنت عليه وغذته  
بعطافها . ومع ذلك فهي لا تعلق إلا بأنها جدته . . . فقد قال في رثائها :

ولو لم تسكوني بنت أكرم والد لسكان أباك الضخم كونك لي أُمّا  
وفي سبيل العلم ذهب إلى البادية وهاجر إلى العلماء « وطلب الأدب وعلم العربية »  
ونظر في أيام الناس ، وتعاطى قول الشعر من حديثه حتى بلغ الغاية التي فاق فيها  
أهل عصره وطاول شعراء وقته .

وفي سبيل المجد والثروة تنقل في البلدان ما بين حواضر الشام ومصر والعراق  
حتى لقي مصرعه وهو في طريقه إلى سيف الدولة مرة ثانية من العراق على أيدي قطاع  
الطرق عام ٣٥٤ هجرية على أرجح الأقوال .

وقد قيل في تعليل اسمه « المتنبي » إنه ادّعى في شبابه الباكر النبوة . واستدل  
القائلون بذلك بأبيات من شعره كقوله :

أنا في أمة تداركها الله غريبٌ كصالح في ثمود  
قوله :

ما مُقَامِي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود  
ولا يستبعد على من كان في مثل طموح المتنبي أن يدّعى شيئاً من هذا ليلتفت  
الناس حوله كما روى عنه بعض المؤرخين زاعمين أن هذا كان سبب حبسه وتقييده .  
ولعل مما يؤيد دعوى النبوة ما كان يصطنعه المتنبي في شعره من الفلسفة ومعانيها ،  
وما يحاوله دائماً من فلسفة الحياة والناس كقوله :

نبكى على الدنيا وما من معشِرٍ جمعهم الدنيا فلم يتفرّقوا  
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كنزوا السكنوزَ فابقيّن ولا بقوا

من كل من ضاق الفضاء بحيشه حتى نوى فواه لحد ضيقُ  
خُرُسُ إذا نُودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلقُ  
فالموت آتٍ والنفوس نفائسُ والمستعز بما لديه الأحقُ

وهو يناقش آراء الدهريين القائلين بفناء الأرواح والمؤمنين بالبعث ، ويخلص  
إلى أن التفكير في الدنيا والخوف على فراقها تعب ، كما أن اليقين بهذا الفراق تعب  
آخر ؛ فالنفس بين حالين من التعب والعجز :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب<sup>(١)</sup>  
فقليل تخلص نفس المرء سائلة وقيل تشركُ جسم المرء في العطبِ  
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

ويتحدث عن الدنيا وانتقالها بين الورثة وزوالها الحتم عن صاحبها مهما طالت  
صحبتة لها في قوله :

تملكها الآتي تملكُ سالب وفارقها الماضي فراق سليب  
ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب<sup>(٢)</sup>  
وأوفى حياة الغابرين لصاحب حياة امرئ خاتمه بين مشيب

وقد امتاز كثير من شعر المتنبي بالمبالغة أيضاً حتى يمكن القول بلا حرج أن  
المبالغة من خصائص المتنبي في الشعر ، وحتى خرج بها أحياناً من حدود المعقول إلى  
السخر والإسفاف كقوله في مدح ابن زريق :

بشَّرُ تصوير غاية في آية تنفى الظنون وتفسد التقييسا  
وبه يُصنَّ على البرية لا بها وعليه فيها لا عليها يُوسى  
لو كان ذو القرنين أعملَ رأيه لما أنى الظلمات صرن شموسا

(١) الهلاك .

(٢) شعوب : علم الغنية .

أو كان لُجُّ البحرِ مثلَ يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى  
أو كان للنيران ضوء جبينه عُيِدَتْ فكان العاملون نجوسا  
أما التعقيد فهو شائع في شعر المتنبي بما لا يقل عن المبالغة ، ولعل ذلك مرجعه  
إلى ما كان يجهد به نفسه في اصطناع المعاني واختيار الألفاظ حتى ليبدو في بعض  
شعره صانعا لا شاعرا يضع الكلمات في قوالب صناعية بدلا من أن يعبر عن  
خلجات نفسه ونبضات قلبه في شعر مرسل على سجيته ووفق طبيعته .

ولعل هذا العناء الذي كان يحتمله أبو الطيب يرجع إلى حرصه على مجانبة  
الخطأ وعدم تمكين حاسديه — وهم كثيرون — من نقده أو السمو إلى صناعته وإلى  
طبعة مدحويه ، وكان بعضهم من كبار الشعراء كسيف الدولة وابن العميد :  
فاستمع إليه يتحدث عن ناقته التي تمضى الليل تسير في الصحراء ويسير الهزال  
في جسدها هاوية ويأكل شحمها :

فتبينت تُسَيِّدُ مُسَيِّدًا في نِيهَا<sup>(١)</sup> إِسَادَهَا<sup>(٢)</sup> في المَهْمَةِ الْإِنْضَاءِ<sup>(٣)</sup>

لسنا في حاجة بعد ما قدمنا من أمثلة من شعر المتنبي إلى دليل جديد على عمق  
شعوره بفقوه وامتياز ذلك الشعور الذي ما فتى يكرره في شعره ، وكأني به يستكثر  
الأعداء لا سيما من الشعراء والأدباء ؛ وكيت لا وهو يقول :

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مَقُولُ  
بل حتى في المديح لا ينسى نفسه ، وكثيراً ما يشاطر المدوح القصيدة إن لم يزد  
عليه فهو حين يمدح كافوراً يقول له :

وفؤادى من المملوك وإن كا ن لسانى يُرَى من الشعراء

(١) الشحم .

(٢) إدمان سير الليل .

(٣) مصدر أنضى : أهى هزله .

وقد كان نتيجة لهذا الشعور شديد الكبرياء حتى أنه لما فوّح فيمن ذمه من شعراء بغداد أجاب بقوله : إني فرغت من إجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء :

أرى المتشاعرين غرّوا بذمّي      ومن ذا يحمد الهداء العضالا  
ومن يك ذا فم مرّ مريضٍ      يحدّ مرّاً به الماء الزلالا  
وهل أبلغ في التعبير عن كبريائه من قوله :

لتعلم مصر ومن بالعراق      ومن بالعواصم أنى الفتى  
وأنى وفيتُ وأنى أبيتُ      وأنى عتوتُ على من عتا  
وما كل من قال قولاً وفي      ولا كل من سيم خسفاً أبى

بل إن هذه الكبرياء كثيراً ما قادت به إلى الغرور الذي أوغر عليه قلوب الناس كقوله في حضرة سيف الدولة :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا      بأننى خير من تسعى به قدّم  
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى      وأسمنتُ كلماتى من به صمّم  
الخيّل والليل والبيداء تعرفنى      والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ومع كل هذا فقد كان المتنبي شاعراً ينفع به ما يقع عليه وجدانه وحسه ويحيد وصفه في شعر تخالطه الرقة رغم ما يعلو صورته من تهاويل القوة . . . . . استمع إليه يصف بحيرة :

لولاك لم أترك البحيرة والـغور دَفءً وماؤها شَبَمُ  
والموج مثل الفحول مزبدة      تهدر فيها وما بها قَطَمُ  
والطير فوق الحباب تحسبها      فرسانَ بُلقي تخونها اللُجَمُ  
كانها والرياح تضربها      جيشاً وغى : هازمٌ ومنهزمٌ

كأنها في نهارها قَمَرٌ حَفَّ به من جنبها ظَلَمٌ  
تفنت الطير في جوانبها وجادت الأرض حولها الدِيمُ

وأنة ليعقد مقارنة لطيفة بين نساء الحضر ونساء البدو ؛ فيها الكثير من سذاجة التعبير وبدائيته ، حتى أنه يشبه نساء الحضر بالمعيز ونساء البدو بالآرام<sup>(١)</sup> :

ما أوجهُ الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايبِ  
حُسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبِ  
أين المعيزُ من الآرامِ ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطيب  
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صيغ الحواجيبِ  
ولا برزن من الحتامِ مائلة أوراكن صقيلات العراقيبِ  
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوبِ

لكن المتنبي دائم الخوف من الاتهام بالضعف ، ولذلك تراه يصيغ معظم شعره بالenf ، وهو دائم الحديث عن القوة والقتال منذ صباه الباكر . فاستمع إليه في رثائه لحمد بن إسحاق التموخي ، فهو يتحدثنا عن شجاعة الميت وحسن بلائه في الحرب وسيوفه التي تشرق من أعمادها ثم تغرب في رؤوس أعدائه :

يزور الأعداى في سماء مجاجه أسنته في جانبها الكواكبُ  
فتسفر عنه والسيوف كأنما مضاربها مما انقلن ضرائبُ  
طلعن شمساً والعمود مشارقُ لهن وهامات الرجال مغارب

وهو يكثر من الحروب ووصف المعارك حتى جواده كان له نصيب كبير من شعره فهو يصفه ساعة القتال بقوله :

(١) الظباء الخاصة البيضاء .

وتسعدني في غمرة بعد غمرة<sup>(١)</sup> سَبَّوح<sup>(٢)</sup> لها منها عليها شواهدُ  
تثني على قدر الطعان كأنما مفاصلها تحت الرماح مَرَاوِدُ<sup>(٣)</sup>  
محرمة أكفال خيلي على القنا محلة لباتها والقلائد

إلا أن قصائد المديح تسكون الجزء الأكبر من ديوان المتنبي وهو كان يلجأ  
إليه تحت ضغط الحاجة أحياناً ولتحقيق آماله العراض في أكثر الأحيان .

لقد كان رجلاً واسع الأمل يريد أن يكون والياً أو أميراً ، وهو يلتمس  
الطريق إلى ذلك بالتنقل بين المقاطعات ومدح الحاكمين ، فهو يقول لكافور  
الإخشيدي :

إذا كسب الناس المعالي بالندى فإنك تعطي في ندادك المعالي  
وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجع ملكاً للعراقيين واليا  
وقبل أن يتصل بكافور أقام في رعاية سيف الدولة على بن حمدان زمناً طويلاً ،  
فأعانه على تحقيق بعض آماله ، وأعاشه في خفض من العيش ونعمة .

وفي حماء كتب المتنبي أروع شعره وأجمل مدائحه مثل قوله :

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه  
الشمس من حساده ، والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمائه  
أين الثلاثة من ثلاث خلاله من حسنه ، وإبائه ، ومضائه  
مضت الدهور وما أتيت بمثله ولقد أنى فعجزن عن نظرائه

ولقد رأينا كيف أن المتنبي يعشق القوة ويمجدها . ومن كان مثله فهو ولا شك  
ينفعل بما يراه من آثار هذه القوة فيترجم عن شعوره أجمل الترجمة ، لذلك نرى المتنبي  
يجيد وصف المعارك وقد خاض بعضها مع سيف الدولة فسجلها وخلدها بشعره ،  
وهو يمدحه ويصف جيشه في قوله :

(١) الشدة .

(٢) الفرس كأنها تسبح في جريها .

(٣) جمع مرود وهو حديدة تدور في اللجام .





ألا كل ماشية الخَيْرَلى فدا كل ماشية الهَيْدَى  
ويقول مستنكراً حال العاشقين :

وللخَوْدِ منى ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تُجَابُ  
وما العشق إلا غِرَّةٌ وطاعةٌ يهرِّضُ قلبُ نفسه فيُصَابُ  
وغير فؤادى للغوانى رَمِيَّةٌ وغير بنانى للزجاج<sup>(١)</sup> رِكَابُ

بل هو يشبه نفسه بالصخرة في قصيدة أخرى رغم ما في القصيدة من شعور  
صادق بالألم والمرارة التي تحزُّ في نفسه لما لقيه من فشل في أسفاره .

عيد بأية حالٍ عُدْتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ  
أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيدُ  
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تقيمُه عينٌ ولا جيدُ  
يا ساقبي آخر في كؤوسكما أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيْدُ ؟  
أصخرة أنا مالى لا تحركنى هذى المدام ولا هذى الأغاريدُ  
ماذا لقيتُ من الدنيا ؟ وأعجبها إني بما أنا بالك منه محسودُ

والمتنبى بعد ذلك يجيد السخرية ، وهو يسخر دائماً من الضعف والضعفاء .  
ومن أروع ما طالعت له تلك الصورة الساخرة المعنوية في الاستهجان لاثنين اشتركا  
في قتل فأر ... فأر واحد يشترك رجلان في قتله بدلا من أن يقاتلا في سبيل حريتهما  
أو رفع المظالم عن قومهما . . . لقد استكانا للذل حتى ظننا أن أرفع معاني البطولة  
تتمثل في قتل فأر . فاستمع لرأى المتنبى فيهما :

لقد أصبح الجردُ المستغِيرُ أسير المنايا صريع العَطَبِ  
رماه الكنانى والعامرى وتلاه للوجهِ فعلَ العربِ

كَلَّاَ الرجلين أتتلى قتله فأيكما غلَّ حُرَّ السَّابِّ ؟  
 وأيكما كان من خلفه ؟ فإب به عضّة في الذنب .  
 ولم يكن المتنبي بأقل إقذاعاً في أشعار الهجاء من هذا بل أنه ليسف أحياناً  
 وينزل إلى أحط أنواع السباب . وقد قال يوماً يهجو وردان بن ربيعة الطائي :  
 لحا الله ورداناً<sup>(١)</sup> وأماً أتت به له كسب خنزيرٍ وخُرطومٍ نعلٍ  
 فما كان فيه الغدر إلا دلالة على أنه فيه من الأثم والأب  
 ولقد أفرغ كل المرارة المحتزنة في نفسه في قصيدته المشهورة التي هجا فيها كافوراً  
 غداة فراره من مصر وملاها بالصور العجيبة الشواء لصاحب الأُمس ، وقد جاء  
 في آخرها تلك الصورة الفريدة للعبد في يد النخّاس وهو يعرضه للبيع :  
 من علمَ الأسود الخصى مكرمةً ؟ أقومه البيض أم آباؤه الصّيدُ  
 أم أذنه في يد النخّاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مرّودُ ؟  
 أولى اللّثام كويّفير بمعذرة في كل لوم وبعض العذر تفنيْدُ

\*\*\*

غفر الله للمتنبي ما أفرط في كبريائه وادعائه القوة والعظمة وإسرافه على نفسه  
 والناس في مطالبه التي نغصت عليه حياته ولم تدع له في الدنيا من قرار .

(١) بنات وردان وهي دويبة كريمة الربيع

## ابن زيدون

منذ ربع قرن من الزمان نشر الأستاذ كامل كيلاني على الناس ديوان ابن زيدون بعد ضبطه وشرحه ، فكان لظهور الديوان دوى عظيم فى المحافل الأدبية وفضل إجلاء بعض كنوز بحترى المغرب الدفينة ونشرها على أدياء العصر لينهلوا من صفو مواردها .

وقد استقبل الديوان خيرا استقبالا من كل مهتم بأدب العرب . ومما قاله أمير الشعر أحمد شوقى فى تحية الديوان :

يا ابن زيدون مرحبا      قد أطلت التغييا  
أنت فى القول كله      أجمل الناس مذهبيا

ولم يبالغ فيما قاله شوقى عن أبى الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون ذى الوزارتين ، ذلك الرجل الذى خلد اسمه وسبق ما بقى تاريخ الأندلس وأمجاد العرب فى الأندلس .

لقد ولد ابن زيدون فى قرطبة عام ٣٩٤ هـ فى أول عهد المظفر بن حم فى بيت علم وأدب وبيئة تعشق الفن والجمال وفترة هى أزهى عصور الأدب فى الأندلس ، وكان أبوه القاضى العالم أبو بكر عبد الله بن أحمد الذى مات عام ٤٠٥ هـ وخلف لابنه اليتيم صغيراً ، لكن لعلها الحياة كانت تعد ابن زيدون لدوره الطويل فيها لأنه ما إن بلغ مراتب الشباب حتى اشتهر وذاع صيته وتسامع الناس بعلمه وأدبه ، وأحلوهم منهم محل الزعامة ؛ مما هيا له أسباب الاشتراك فى الفتنة القرطبية التى اندلعت نيرانها فى قرطبة فزلزلت دولة بنى أمية ودولة بنى حمود والعلويين ، وأسلمت الحكم إلى ملوك الطوائف الذين تنازعوا السيادة ، وتقاتلوا على الدنيا حتى هوت بهم جميعاً .

وكانت سنة حينئذ ٢٨ عاماً فقرر به ابن جهور ولقبه بذي الوزارتين ؛ لكن عين الحقد لا تنام وحساد العبقرية كثيرون ، فظلوا يكيّدون له حتى سجنه ابن جهور بتهمة التآمر على الحكم ، فأخذ يستعطفه بالبديع من القصائد والرسائل عامين دون جدوى ؛ فعمد إلى الفرار .

فلما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون إلى قرطبة في خلافة ابنه ، لكن حساده لم يتركوه ينعم بمكانته الجديدة ، بل عملوا على النيل منه حتى غيروا قلب الابن كما غيروا قلب الوالد من قبل ، ففر ابن زيدون مخافة السجن ، وظل يتقلب في البلاد حتى استقرت به النوى في إشبيلية حيث استوزره المعتضد ثم خليفته من بعده المعتمد السياسي الحصيف الذي لم يسمع لحساد ابن زيدون بل اقتنع برأيه في غزو قرطبة والاستيلاء عليها ، فعاد إليها ابن زيدون مكرماً معززاً .

لكن كيف يهدأ الحسد والغيرة في قلوب الناس ! ؟ لقد ظلوا يكيّدون له حتى أنهم زينوا للمعتمد أن أحداً لن يخدم ثورة يهود إشبيلية إلا ابن زيدون فأمره بالخروج إليهم رغم شيخوخته ومرضه ، فمات ببعض الطريق في ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ .

عاش ابن زيدون في عصر قلق مضطرب تتخلله الثورات التي تطيح بالعروش والأسر ، وفي بيئة أخذت من أسباب الترف والرفاهية إلى أبعد حد أتاحه العصر ، ونعمت بالحرية في الفكر والعيش إلى أبعد مدى ؛ حتى أن الوزير ليدعو الخليفة علناً إلى اغتنام صفوة الحياة ومجلس اللهو والشراب ، ولا يتحرج الأمراء من مبادئهم . وإني لأذكر لابن زيدون الأبيات التالية التي تدلّك على مدى حرصهم على لهوهم :

أدريها فقد حسن المجلسُ وقد آن أن تترع الأكوسُ  
ولا بأس إن كان وليّ الربيع إذا لم تجد فقهه الأنفس



أما مُنى نفسى فأنت جميعها يا ليتنى أصبحت بعض مُفناك  
يدنو بوصلك حين شطاً مزاره وهم أكاد به أقبِل فاك  
بل إنه ليرجو منها عطفة تحيا بها نفسه ، ولا يطمع منها فى أكثر من زورة :

ألا عطفة تحيا بها نفسُ عاشقٍ جعلت الردى منه بمرأى ومسمع  
صلينى - بعض الوصل - حتى تبيّنى حقيقة حالى . . ثم ما شئت فاصنعى

ولعل قصيدته . . « أضحى التناثى » من أروع ما قرأت فى حياتى ترجمة عن  
معانى التفجع والألم لبعد الحبيب ؛ ومن منا لا يذكر تلك الأبيات الباكية التى  
بتمنى فيها الموت ويفضله على فراق ولادة فى مطلع القصيدة :

أضحى التناثى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب ألقيانا تجافينا  
ألا<sup>(١)</sup> وقد حان صبحُ البين صبّحنا حين فقام بنا للحين ناعينا  
من مُبلغ المبلسينا بانزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا  
ويمضى ابن زيدون فى وصف يأسه والعوامل التى أفضت إلى تمنّيه هذا الموت  
المعجل فيحس الدنيا خواء حوله لا يرى فيه إلا ظلاماً :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا  
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسمى لولا تأسّينا  
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا  
ويبلغ به الوله حدّاً يستسلم فيه للدموع ، ويقنع بالطيف والذكر بعد اليأس  
القاتل المرير :

أبكى وفاء وإن لم تبذل صلّةً فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا  
وفى الجواب متاع إن شفعت به ييى الأيادى التى ما زلت تؤلينا

(١) لغة فى هلا .

عليك ممّا سلام الله ما بقيت صباة بك نخفيها فتخفين<sup>(١)</sup>  
ويمضى ابن زيدون حياته ينشد الشعر مردداً ذكرى ولادة ، فتراه فى رحاب  
المعتضد وفى تهنته بالعيد يستهل القصيد بقوله :

أما فى نسيم الريح عرفٌ معرفٌ لناهل لذات الوقف<sup>(٢)</sup> بالجزع موقفٌ  
فنفضى أوطار المني من زيارة لنا كلف منها بما تتكلف  
غيارى بعدون الغرام جديرة بها والهوى ظلماً يغيظ ويؤسف  
يودون لو يثنى الوعيد زماعنا<sup>(٣)</sup> وهيها ريح الشوق من ذاك أعصفُ  
وان ابن زيدون ليخجل ويحس أنه ملوم من الناس فيما لا حيلة له فيه فيعتذر  
إليهم بما يحسه من شوق ولهفة وأسى :

خليلى مهلاً لا تلوماً فإننى فؤادى أليفُ البث والجسم مدنفُ  
فأعنفُ ما يلقي الحبُّ لاجاة على نفسه فى الحب حين يمتفُ  
وإنى ليستهوينى البرقُ صبوةً إلى برق ثغرٍ إن بدا كاد يخطفُ  
بل إنه وهو فى سجن ابن جهور يكتب إليه مستشفعاً مستعطفاً فلا ينسى ولادة  
بل يبدأ رسالته الشعرية بذكر ولادة الذى لا يبرح خياله ، والذى يتمثله فى كل لحظة  
وفى كل ما حوله :

ما جال بعدك لحظى فى سماء القمرِ إلا ذكرتكَ ذكر العين بالأثرِ  
ولا استطلتُ ذمء الليل من أسفٍ إلا على ليلة سررتُ مع القصرِ  
أما الضنى لجفنته لحظة عَن<sup>(٤)</sup> كأنها والردى جاءا على قدرِ  
لا هو أيامه الخالى بمرتجع ولا نعيم لياليه بمنتهظرِ  
مئى كأن لم يكن إلا تذكرها إن الغرام لمعتادٌ مع الذكرِ

(١) تظهرنا . (٢) السوار . (٣) العزم . (٤) عارضة .

والحب دائماً في أمل لقاء محبوبه ولو أيقن أن هذا اللقاء ضرب من المحال ،  
فإنه لا يأبى أن يخدع نفسه ويعلمها بكاذب الأمانى . وهكذا كان ابن زيدون في  
حنينه المتواصل إلى غرام ولادة :

هل راكب ذاهب عنهم يحيينى إذ لا كتاب يؤافيني فيحيينى  
قد رمت إلّا ذمّاء فيّ يسكه أن الفؤاد بليّهم يرجينى  
ماسرّح الدمع من عيني وأطلقه إلا اعتياد أسى في القلب مسجون  
بل إن جذوة الحب الصادق تبقى متقدة أبداً في قلب العاشق الصب لا يطفئها  
علمه بغدر الحبيب ولا بهلاكه في سبيل الحب . . إنه الحب الخالد الملهم الذى خلق  
العباقة والعطاء . . إنه الحقيقة الأبدية والقوة الباقية على الدهر :

سَتَبْلَى الِإِلَى والودادُ بحالِهِ جديداً وتَفَنَّى وهو للأرض وارثُ  
ولو أننى أقسمت أنك قاتلى وأنى مقتولٌ لما قيل : حانت  
وشعر ابن زيدون يمتاز إلى جوار العاطفة الصادقة ، بالصنعة المتقنة ، وجمال  
الأسلوب ، وحسن التأليف ، ودقة الانسجام ؛ وهى ما تميز شاعراً عن أخيه إذا اتفق  
لها الحديث عن معنى واحد . وما أكثر ما تكرّر المعانى فى شعر الشعراء . . .  
وهى ميزة اشترك فيها ابن زيدون أو يحترى المغرب مع يحترى المشرق .

وإن ابن زيدون ليحس بتفوقه وعبقريته إحساساً عميقاً ، ويعتز بنفسه حتى  
وهو فى ذل الأسر سجيناً ؛ فاستمع إليه فى رسالة إلى صديق من الوزراء :

إن قسا الدهر فلما ١ من الصخر انبجاسُ  
ولئن أمسيتُ محبوساً فلغيت احتباسُ  
يلبّدُ الورْدُ (١) السّبَنَتى (٢) وله بعدُ افتراسُ



فَتَأْمَلُ كَيْفَ يَفْشَى مُقَلَّةُ الْجَدِّ النَّعَاسُ  
وَيُقَتُّ الْمِسْكُ فِي الثَّرْبِ بَ فَيُوطَأُ وَيُدَاسُ

بل هو يذهب إلى التصريح في قصيدة أخرى حيث يقول :

وهو الدهر ليس ينفك ينحو بالمصاب العظيم نحو العظيم

لكن هذا العظيم بَشَرٌ يحسُّ ويألم ، ويشعر بالمرارة لما آل إليه حاله من  
سجن وإذلال بعد عز وإكبار ؛ وتمضي به الأيام وتذهب صيحاته واستغاثاته  
وشفاعاته سدى ، فترى الحكمة يجرى بها لسانه ، ويرسلها شعراً يفلسف به آراءه  
في الحياة بعد خبرته الطويلة بصروفها وخداعها :

هرمتُ وما للشيب وَخُطٌّ بَمَفْرَقٍ      وَكَأَنَّ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَيْدِي وَخُطٌّ  
وطاؤَلْ سوء الحال نفسى فَأَذْكَرَتْ      من الروضة الغناء طَاوَلَهَا الْقَحْطُ  
مَثُونٌ مِنَ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَعْتَهَا      أَسِيرًا وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدٌّ وَلَا قَمْطُ<sup>(١)</sup>  
أَتَدْنُو قُطُوفَ الْجَنَّتَيْنِ لِمُعْشِرٍ      وَغَايَتِي السُّدْرُ<sup>(٢)</sup> الْقَلِيلُ أَوِ الْخَمْطُ<sup>(٣)</sup>  
وما كان ظَنِّي أَنْ تَغْرِبَ الْوَعْدُ      وَلِلْغَرِّ فِي الْعِشْوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطُ  
أَمَا وَأَرَتْنِي النِّجْمَ مَوْطِئٌ أَخْمِي      لَقَدْ أَوْطَأْتُ خَدِّي لِأَخْصَ مَنْ يَخْطُو

وإنه ليدكر قرطبة وحبه فتفيض نفسه حسرات على أيامها ومعانيها وهواه  
وتقطر رقة في قوله :

أَقْرَبُ الْغُرَاهِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ ؟      وَهَلْ كَبْدُ حَرَمِي لِبَيْنِكَ تَنْقَعُ ؟  
وَهَلْ لِلْيَالِيكِ الْحَمِيدَةِ مَرْجَعُ ؟      إِذَا لِحْسَنُ مِرْأَى فِيكَ وَاللهُ مَسْمَعُ  
وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكَ مَوْطَأُ

(١) القيد . (٢) النبق . (٣) كل نبت أخذ من المرارة فتعذر أكله .

أليس عجيباً أن تشطّ النوى بكِ فاحيا كأن لم أنسَ نفعَ جنابكِ  
ولم يلتئم شعبي خلال شعابكِ ولم يك خَلْقٌ بدؤه من ترابكِ  
ولم يكتنفني - من نواحيك - منشأ

معاهد أبكيها لعهدٍ تصرّماً أغضّ من الورد الجنى وأنما  
لبسنا الصُّبا فيها حبيراً منمنا وقُدنا إلى اللذات جيشاً عَرَمَماً  
له الأمن ردة والغداوة مرُبا

ولقد كان شعر ابن زيدون سجلاً رائعاً لحياة العرب في الأندلس في تلك الحقبة  
المترفة من تاريخهم ، فاستمع إليه يصف مجلس السمر مع ولادة وما فيه من خمر  
وطرب وموسيقى :

لم نجفُ أفاقَ جمالٍ أنت كوكبهُ سالين عنه ولم نهجرهُ قالينا  
نأسى عليك إذا حُثَّتْ مشعشةُ فينا الشمولُ وغنّانا مغنّينا  
لا أكوّس الراح تُبدى من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتار تُلهينا  
وقد ساعد حجاب ولادة السهل أن المبدول ابن زيدون على أن يكثر من  
الوصف الواقعي للمرأة وجالها ، وأن يأتي في غزله بصور قد لا تدانها أشد أنواع  
الواقعية الحديثة كقوله :

فرشفتُ الرضابَ أعذبَ رشفٍ وهصرتُ القضيبةَ ألطفَ هصرٍ  
ونعمنا بلفٍّ جسمٍ بجسمٍ للتصافى وقرعٍ ثغرٍ بثغرٍ  
أو قوله :

مصانعُ تجتذبُ القلوباً  
حيثُ ألفتُ الرشاً الريبا  
مخالفاً في وصله الرقيا

كم بات يدري<sup>(١)</sup> ليله الغريبيا  
لما انثنى في سُكره قضيبا  
تشدو حمامٌ حَلِيهِ تطريبا  
أرشف منه الميسمَ الشَّذِيبا<sup>(٢)</sup>  
حتى إذا ما اعن<sup>(٣)</sup> لى مُربيا  
شبابُ أفقٍ همٌّ أن يشيبا  
بادرتُ سعيًا . . . هل رأيت الذيبا ؟  
هَصَرَتْهُ حلو الجنى رطيبا

أليست هذه ليلة ناعمة يختلسها الشاعر مع حبيبته في نشوة من العناق والقبل حتى مطلع الفجر ؟

والمديح شائع في شعر ابن زيدون ، لكنه في معظم الأحيان يصدر عن شعور صادق . . . شعور الوفاء نحو ممدوحه وواجب الشكر على نعمه ؛ وإنك لتجس بعزة نفسه وأنفته خلال مدائحه كما لو كان يكتب للفخر بنفسه . فاستمع إليه يقول في معرض مديحه لأبي الحزم بن جهور :

أنا سيفك الصدي الذي - مهما تشأ -  
تعد الصقال إليه والتذريبا<sup>(٤)</sup>  
كم ضاق بي من مذهب في مطلب  
فتمنيته فُسحَ المجال رحيبا  
وزها جناب الشكر حين مطرته  
بسحاب النعمى فرُدَّ خصيبا  
ونفس ابن زيدون تطرب للجمال وتهتز له ، وديوانه مليء بألوان من جمال

(١) يحتمل .

(٢) صفة من الشنب برد وعذوبة في الأسنان .

(٣) اعترض .

(٤) التجديد .

الطبيعة وصورها العجيبة ، يضاف عليها من روحه فتتهز وتمور بالحياة لما كان له من حظ كبير في حسن الطبيعة . . . استمع إليه يصف التفاح :

أَتَتِكَ بِلَوْنِ الْحَبِّ الْخَجِلِ تَخَالِطَ لَوْنِ الْحَبِّ الْوَجِلِ  
تَمَارٌ تَضْمَنَ إِدْرَاكَهَا هَوَاً أَحَاطَ بِهَا مَعْتَدِلُ  
تَأْتِي<sup>(١)</sup> لِلْإِطَافِ تَدْرِيجُهَا فَنَ حَرٌّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلِّ  
إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءُ الْعَلِيلِ وَأَنْسَ الْمَشُوقَ وَلَهُوَ الْغَزَلُ  
فَلَوْ تَجَمَّدَ الرَّاحُ لَمْ تَعُدُّهَا وَإِنْ هِيَ ذَابَتْ فَخَمَرٌ تَحِلُّ

وهو إذ قلناه الحبيب لا يجد ملاذًا إلا في الطبيعة يبتها شكاته ، ويناجيها ويتحدث إليها ، حتى إنك إذ تسمع شعره ذاك تحسبه من شعراء الرومانتيك المعاصرين الذين جُنُوا بالطبيعة ووجدوا فيها المهرب من واقع الحياة :

يَا سَارَى الْبَرْقِ غَادِ<sup>(٢)</sup> الْقَصْرِ وَأُسْقِ بِهِ مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوَدَّ يَسْقِينَا  
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنَى تَذَكُّرُنَا إِلْفًا تَذَكُّرُهُ أُمْسِي يَعْنِينَا  
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا

ومن طول ما برّح به الهوى أصبح لا يذكر مكانًا إلا مقرونًا بولادة وذكراها ، ومع ذلك فإنه يحضرني بيت من الشعر في وصف صفو الزمان مشبهًا إياه في صفائه بالندى المتساقط على صفحات الورد ... إنه من أبدع ما طالعت في تصوير هذا الصفاء .

زمن كما راق السقيط من الندى يستن<sup>(٣)</sup> في صفحات ورد يانع  
وقبل أن نختم حديثنا عن ابن زيدون لا بد من أن ننوّه بعلمه وفضله ، فقد

(١) ترفق . (٢) باكره بالفهم . (٣) ينصب .

كان من علماء زمانه الأعلام ، ولو أن صفة الشعر غلبت عليه في كل أعماله .  
استمع إليه بصور تلك المعاني الفلسفية عن الدهر والصبر والإيمان فيضعها في  
قالب من الشعر الجميل ، وذلك لأنه يحس المعنى بوجدانه قبل أن يجريه على لسانه :  
هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر      فن شيم الأبرار في مثلها الصبرُ  
ستصبر صبر اليأس أو صبر حسبة      فلا تؤثر الوجهة الذي معه الوزرُ  
حذارك من أن يعقب الرزء فتنة      يضيق لها عن مثل إيمانك العذرُ  
وله نثرًا عدة رسائل من أشهرها : « الرسالة الجدية » . وقد كتبها في سجنه ،  
وغلب على أسلوبها التصوير الشعري باستعاراته ومجازاته ، فاستمع إليه يقول معتذراً  
عن خطئه في حق أبي الحزم : « فلا غرو قد يغص بالماء شاربهُ ، ويقتل الدواء  
المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتسكون منية المتمنى في أمنيته ، والحين قد  
يسبق جهد الحريص . . . هل أنا إلا يد أدماء سوارها ، وجبين عض به إكليله »  
ومشرقى الصق بالارض صاقله » .



حتمًا ما أصدق شوقي إذ يقول :

ابن زيدون عبقرى زمانه      قصر المحسنون عن إحسانه  
أخذ الروم في الجزيرة عنه      ومشوا في خياله وافتنانه

## ولادة بنت المستكفي

هي ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر لدين الله أمير قرطبة الذي بايعه أهلها بعد خلع المستظهر .

ولقد ولدت وشبت وشابت في الأندلس في أوج نهضتها وحضارتها وازدهار علومها وفنونها في بيئة كفلت فيها الحرية إلى أقصى حدودها . . . حرية القول . . . حرية الاجتماع . . . حرية البحث العلمي المجرد دون النظر إلى أي اعتبار آخر ، فتمسقت ولادة هذه الحرية وعبدتها ، وآثرت حريتها على كل اعتبار آخر . وقد كان لمباغتها بحريتها وإسرافها في استعمال حقها في الحرية إلى أقصى مداه وأكثر ؛ أثره في إشاعة الشائعات حولها وفي إفساح المجال للمتقولين للنيل من كرامتها ومكائنها . . . ولقد ساعد على ذلك ما كانت تتمتع به « من نهاية الظرف والأدب في حضور شاهد ، وحرارة أواد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ؛ وأن مجلسها بقرطبة كان منتدًى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، وكان أهل الأدب يعشون إلى ضوء غرتها ، كما تهالك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ؛ وهي تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ؛ لـكنها كانت قليلة المبالاة تجهر بلذاتها متى شاءت <sup>(١)</sup> » .

ولم تسكن ولادة تنبؤ بكرم نسبها ، وجمال خلقها ، وسحر هذا الجمال وفنكه وقوته وأسره ، وما امتازت به من ظرف وبديهة حاضرة وحديث عذب فحسب ؛ بل كانت أيضاً شاعرة أدبية جزلة القول حسنة الشعر ، تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . وقد كتبت بالذهب على الطراز الأيمن :

أنا والله أصلح للعالمى وأمشى مشيتى وأتيه تيهها  
وليس بعد ذلك قوة ، بل ليس بعد ذلك غرور فى الاعتداد بالنفس والشعور  
بتفوقها ومكاتها بين الناس ، وهو ما جعلها تتعالى على الوزراء والأمراء ، وتعتقد أن  
الجميع دونها مكانة ومنزلة .  
أما ما كتبت على الطراز الأيسر .

وَأَمْكِنُ عاشق من صحن خدى وأعطى قبلى مَنْ يشتهىها  
فهو صورة للحرية التى كانت تسبغها على نفسها ومدى تحملها ، بل تحمل البيئة  
كلها من كل القيود والمواضعات ؛ ورغم ذلك فقد تواترت الأنباء عن ولادة بأنها  
اشتهرت بالصيانة والعفاف .

والمطالع لتاريخ الأندلس فى هذه الحقبة التى أظلت ولادة يهوله ما أغرق فيه  
أمرائها من ترف ومجون ، وما شغلوا به من فنون اللهو وابتكار أسبابه ،  
وما سعوا إليه من أنواع المتعة واللذة والشهوات المملكة ؛ لاهين عن أمور المملكة  
وأسباب الجهاد ، غافلين عن عدو يتربص بهم الدوائر ؛ بعد أن تفرقت الأندلس  
بينهم إلى إمارات صغيرة تتنافس وتتناحر ، فكان ذلك إيذاناً بمغيب شمس الحضارة  
العربية عن هذه البلاد وبدء أفول نجمها .

ولقد انتفض الإفرنج عليهم وانتزعوا طليطلة عام ٤٧٨ هجرية ، أى قبل وفاة  
ولادة بعامين أو ستة على أرجح الروايات ، فأفاقوا قليلاً للثُذُر ، لكنهم ما لبثوا أن  
عادوا سيرتهم الأولى من لهو ومجون . وتفويض صفحات التاريخ بأنباء ولادة  
وغرامياتها ومغامراتها الجريئة فى ميدان الحب والغزل ، وكان من عشاقها الأصمى ،  
وقد كتبت إليه لما أولع بها بعد طول تمنع تعده اللقاء فقالت :

تَرْقُبْ إذا جنَّ الظلامُ زيارتى فإنى رأيت الليل أكنتم للسرِّ  
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلُحْ وبالبدر لم يطلع ، وبالنجم لم يسِرْ

وقد وفّت بوعدّها له . ويبدو لنا من الأبيات التالية أنّها كانت تسكّتم له بين الضلوع هوى مبرحاً وشوقاً عظيماً ضاق به فؤادها فلم تستطع عند فراقه أن تسكّتم ما تحسه من لوعة وأسى لا يتعاده عنها :

ودّع الصبر محبّ ودّعك ذائع من سرّه ما استودعك  
يقرع السنّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك  
يا أبا البدر سناء وسناء حفظ الله زماناً أطلعك  
إن يطلّ بعدك ليلى فلکم بثّ أشكو قصر الليل معك

كما كثر في حب ولادة المتنافسون ، وكان لا بد أن تظهر بينهم روح الحقد والعداوة فيتباروا في القول ، ويعتدى بعضهم على بعض ؛ ومن أمثلة ذلك مما كان من التنافس في حبها بين الوزيرين أبي عامر بن عبدوس وابن زيدون . وقد قال الأخير لفرّيمه :

أثرت هزبر الثرى إذ ربض ونهته إذ هذا فاغتمض  
وما زلت تبسط مسترسلاً إليه يد البغى لما انقبض  
حذارٍ حذارٍ فإن الكريم إذا سيم خسفاً أبى فامتعض  
وقد ظن ابن زيدون أنه الأثير لدى ولادة فقال أيضاً :

وغرّك من عهد ولادة سراب تراه وبرق ومض  
هى الما يعزّ على قابض ويمنع زبدته من نخض

وقد هام ابن زيدون بولادة ، وخلع في هواها عذاره ، وأرسل أجود أشعاره . لكن ولادة كانت لها جارية سوداء بديعة وقد ظهر لها أن ابن زيدون مال إلى هذه الجارية فشقّ عليها الأمر ، وعزّ عليها أن تجرح كبرياؤها هذا الجرح الغائر



الذى أهان سلطان جمالها ، فكتبت إلى ابن زيدون هذه الأبيات التى تقطر مرارة وأسى :

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا لم تهوَّ جاريتى ولم تتخبرِ  
وتركت غصناً مشمرّاً بجماله وجنحت للفنن الذى لم يشمرِ  
ولقد علمت بأننى بدرُ السما لسنن ولعت لشقوتى بالمشترى  
وكانت قطيعة بينهما ، وتابعت ذلك بهجوا بن زيدون بأشعار كثيرة منها  
ما كان مقدعاً يفيض بالذيل من شخصه ، لكن أثر هذه القطيعة كان على  
ابن زيدون أشد وأفسى ، فأرسل الشعر يفيض لوعة وأسى وشجى يستعطف قلبها  
الذى لم يلب له ثانية . ومن أشهر قصائده فى ذلك تلك التى قال فيها :

أضحى الثنائى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا  
بذتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا  
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا  
حالت لفقدكم أيا منّا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

ولقد عاشت ولادة حياتها لم تتزوج ، ويرجع لى أن ذلك راجع لما امتازت به من طبيعة فنّان يؤثر حرّيته على كل قيد ، ولو كان قيد الزواج وما وراءه من التزامات الأسرة ؛ إلى جانب ما أحاطت به نفسها من أسباب العظمة التى أشاعت المهابة منها فى نفوس خلطاءها .

\*\*\*

وقبل أن نختتم هذا الحديث نود أن نلمع إلى ما امتازت به ولادة من روح الفكاهة المرحّة والسخرية اللاذعة والبديهة الحاضرة ، ومن أمثلة ذلك ما يحكى من أنها مرّت ذات يوم على الوزير ابن عبدوس ، وكان جالساً أمام داره فى جمع من أعوانه وقد تسكونت أمام الدار بركة من ماء الأمطار وبها بعض الأقدار فقالت :

أنت الخصبُ وهذه مصرُ فتدققا فكلاكما بحرُ  
وتركته لا يحير جواباً ، وتركت لنا صورة عجيبة من صور السخرية فالخصيب  
أمير مصر المشهور بالكرم والعطاء يفيض بهما كالبحر والندى ، ولقد اجتمعت  
ببابه الشعراء طمعاً في صلاته ؛ أما ابن عبدوس فهو في نظرها لا يفيض  
إلا بالأفذار . . .

---

## ابن زهرى شاعر ملك

يا من يحنُّ إلى نجدٍ وناديهَا      غرناطةٌ قد ثوت بنجدٍ بواديهَا  
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها      عقيلة والكثيب الفرد جاليها  
تقلدت بوشاح النهر وابتسمت      أزهارها وهى حلّى فى تراقيها

\*\*\*

كم حولها من بدور تجتنى زهراً      فتحسب الزهر قد قبّلن أيديها  
حسبواؤها أولؤ قد شفّ جرهها      والنهر قد سال ذوباً من لآليها

\*\*\*

يزيد حسناً على نهر المجرة قد      أغناه دُرّ حَبَابٍ عن دراريها

\*\*\*

وساجع العود فى كفّ النديم إذا      ما استوقف الطير يديها ويغريها  
يبدى أفانين سحرٍ فى ترثمه      يصبى العقول بها حسناً ويسببها

\*\*\*

فباكرِ الروض والأغصان مائلة      يثنى النفوس لها شوقاً تثنّيها  
لم يرقص الدوح بالأكلام من طرب      حتى شدا من قيان الطير شاديها

\*\*\*

غرناطة .. آسَ الرحمنُ ساكنها      باحت بسرّ معانيها أغانيها  
أغدى نسيهم لطفاً نفوسهم      فرقة الطبع طبعٌ منه يعديها

أترى هل كان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك يصف جنة الخلد ، أم هو قد رأى في جمال غرناطة الذي خلده جنان الأرض ونعيم الدنيا الذي لا يدانى فكيف حياته يصور هذا الجمال ، ويحدث الناس حوله والأجيال من بعده عنه بمثل هذا الشعر الذي يفيض حناناً إلى غرناطة وحباً لما فيها من طبيعة غنية بجمالها مدلة بحسنها ، وأناس أحبوا الحياة واستمتعوا بما فيها من أسباب الجمال والمتعة ، وعشقوا النغم والموسيقى وأبدعوا فيها . . . حتى قال :

خُلِقْتُ مِنْ عَادَتِي أَلُوفًا أَحْنُ لِلْإِلْفِ وَالسَّكَنِ

وما كان حنينه إلا لبيئة تألف وتستحق الحب والتقدير ، وهي بيئته التي رعت صباه وشبابه الباكر ، فهو قد ولد بالبيازين من أعمال غرناطة سنة ٧٣٣ هجرية ( في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً ) وفي أواخر عهد العرب بالأندلس الحبيب ، فسجل هذا الغروب الحزين في شعره صوراً « قد مزجت بين وقائع الحياة وعناصر الطبيعة فجعلت جمعاً عجيباً بين الطبيعة الغاربة والإنسان الفاني ، وإذا الفناء والغروب في شعره يختلطان اختلاط أمل وشوق ، لا اختلاط حزن ويأس . . ومن وراء هذا الشعر كانت صورة الطبيعة الأندلسية بكل جمالها ، وصورة غرناطة بما قد أحيطت به في عصرها وإلى اليوم من الحب والحنين ، وصورة الحراء بما قد كان يدار فيه من حياة صاخبة عاصفة . . اتخذ ابن زمرك حياة ملك وحياة أمة مكافئة في سبيل البقاء وحياله . . حياة أمة قد أريد لها المغيب فلم ترض بأن تغرب فقاومت »<sup>(١)</sup> ، فكان كفاحاً قوياً رائعاً يشوبه شيء من اليأس والحزن مع كثير من القوة التي لا تقهر والتي صاحبته حتى آخر مراحلها . .

في تلك الفترة المضطربة من حياة العرب في الأندلس اتصلت الأسباب بينهم وبين العرب والبرابرة من سكان شمال إفريقية ، وانتقل إلى إفريقية الكثير من الآثار العلمية والعلماء الذين كانت تزداد هجرتهم كلما ضاقت بهم رقعة الأرض

(١) « ثم غربت الشمس » للدكتورة سهير القلماوى

الأسبانية واشتهرت مدرسة فاس في مراکش بن فيها من علماء وكتب ، واضطر ابن زمرك إلى الرحيل إليها للاستزادة من علوم الفقه والدين واللغة .

وعاد ابن زمرك مع الغنى بالله الذى كان قد لجأ إلى مراکش إثر فتنه فى غرناطة أقصته عن عرشه . . عاد مع آخر ملك عربى عرفت الأندلس فى ظله أمن الاستقرار وطمأنينة القوة ، ليكون معه آخر شعراء الملوك ، أو آخر هذا النوع من الشعراء الذين عرفتهم الدولة الإسلامية . . فكان له شاعراً ووزيراً بعد أستاذه لسان الدين الخطيب .

عاد ابن زمرك ليوحتل مكانه فى الصدارة بين شعراء الأندلس فى عصره ، وقد دانت له أساليب اللغة والنظم إلى جانب شاعرية مرهفة وإحساس دقيق وعقل ذكى متوقد ، فجعل يرسل شعره فى وصف غرناطة والغنى ، يسجل هذا الجمال حفرأ على أعمدة الحمراء ؛ فلنستمع إليه فى أحد موشحاته يصف جمال الطبيعة وهو مأخوذ بهذا الحسن تسرى فى أوصله نشوة كنشوة الخمر :

|                              |       |         |
|------------------------------|-------|---------|
| فى كؤوس النغر من ذاك الّلّسن | راحة  | الأرواح |
| وتفشى الروض مسكىّ النّفْس    | عاطر  | الأرواح |
| وكسا الأرواح وشياً مُذهّباً  | يبهر  | الشمسا  |
| عسجدٌ قد حلّ من فوق الرّبّأ  | يبهج  | النفسا  |
| فاتخذ للهو فيه مركبا         | تلتحق | الأنسا  |
| منبر الغصن عليه قد جلس       | ساجع  | الأدواح |
| حلّ السندس خضراً قد لبس      | عطّقه | المرتاح |

بل إن ابن زمرك شاعر مغرم بالحياة يعشق جمالها ، ويريد أن يعبّ من محاسنها بغير حساب ، بل يودّ لو أن الشعب كله من حوله يشركه هذه السعادة التى يحسها وهو يهيم بين مناظر الطبيعة الجميلة وصورها التى لا تنتهى فى غرناطة .

وجه هذا اليوم باسمُ وشذا الأزهار ناسمُ  
هاتِها صاحِ كؤوسا جالباتِ للسرور  
وارتقبُ منها شُموسا طالعات في حبور  
ما ترى الروض عروسا في حلى نورٍ ونور

لكن الشاعر يحس إحساساً غريباً بأن كل ما حوله إلى غروب .. إلى فناء ،  
فتراه يسرع دائماً إلى الأصيل ومغرب الشمس ونهاية النهار حيث الحياة الهادئة  
الناعمة بعد الفراغ من العمل ، وحيث يجد نديماً يلهو معه ؛ لكنه هو تشوبه فكرة  
الغروب ، فترسم على صور الشاعر في مزيج رائع من الألم الحزين والسرور المريح :

قُمْ تَرِ هذا الأصيل شاحبا حسنه قد راق  
ولأذيال العصون ساحبا في حُلَى الأوراق  
ونديم قال لي مخاطبا قول ذى إشفاق  
عادة الشمس بغرب تختلس هات شمس الراح  
إن أرانا الجو وجهاً قد عبس أوقد المصباح  
ووجوه الشَّرْبُ تغنى عن شمس كلبا تجلى  
بلحاظ أسكرتنا عن كؤوس خمرها أحلى  
ما زمان الأنس إلا مختلس فاغتم يا صاح  
وعيون الشهب تذكى عن حرس تخضم النصباح

ومع ذلك فالشاعر يحاول أن يروِّح عن نفسه ويصرف عنها فكرة النهاية  
والفناء التي تطارده ؛ وهل هناك أيسر من مجلس النخروسمّاره وجمع الندامى ، ولستعص  
عن ضوء الشمس بضوء المصباح . . ذلك المصباح الذى يتردد ذكره كثيراً في شعر

ابن زمرك ، ويتخذ في الليالى أنيساً يناجيه ويفضى إليه بذات نفسه ، ويتمزى  
بضوئه عن الواقع المؤلم . . .

لكن الأيام تمضى والشباب يتضاءل حثيثاً ، وقد خلا المجلس ممن يؤنسه  
ويسليه :

ولربَّ ليلٍ بالوصالٍ قطعته أجلو دجاء بأوجه الندماء  
أنسيت فيه القلب عادة حلمه وحنثت فيه أكؤس السراء  
جارت في طاق التصابي جاحاً لا أنثى لمقادة النصحاء  
أطوى شبابي للمشيب مراحل برواحل الإصباح والإمساء  
يا ليت شعري هل أرى أطوى إلى قبر الرسول صحائف البيداء ؟

وسط هذه الأحداث المتعاقبة والحروب المتتابة مع الإسبان وحلفائهم تارة ، ومع  
البربر تارة أخرى ؛ لم ينس ابن زمرك عمله كشاعر الملك الذي يجب عليه صياغة  
المديح للملك في كل مناسبة سعيدة ، فقدم لنا لوناً جديداً من ألوان المديح استغنى فيه  
عن عادة شعراء العرب المتقدمين . . عادة الوقوف بالأطلال أو النسيب . . بوصف  
الطبيعة وصفاً لا يحس معه حرجاً ولا صعوبة عند الانتقال إلى الحديث عن ممدوحه  
لأن الملك والطبيعة متحدان منذ أول الكلام عن الطبيعة ، إذ أن هذا الملك عنصر  
من جمال الطبيعة :

أرقتُ لبرقٍ مثل جفنى ساهرا  
ينظّم من قطر الغمام جواهرها  
فيبسم ثغر الروض عنه أزهارها

وصبح حكى وجه الخليفة باهرا تجسم من نور الهدى وتجددا

شفائي معتلّ النسيم إذا انبرى  
وأسند عن دمعى الحديث الذى جرى  
وقد فتق الأرجاء مسكاً وعنبراً

كأن الغنى بالله فى الروض قد سرى      فهبت به الأرواح عاطرة الرّدا  
والحمراء ذلك القصر العتيد الذى خلد أروع ما وصل إليه فن المعمار فى المدينة  
الإسلامية كان له نصيب عظيم من شعر ابن زمرك حتى قال فيه :

وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به      ولم تك فى أفق السماء جوارياً  
لكن شعر ابن زمرك فى الغزل يحمل المرء على كثير من التفكير لما يكتنفه  
من غموض لا يبين :

زار الخيال بأيمن الزوراء      فجلاً سناه غياهب الظلماء  
وسرّى مع النسمات يسحبُ ذيله      فأنت تنمُ بعنبر وكباء  
هذا وما شئ! ألذُّ من المنى      إلا زيارته مع الإغفاء  
بتنا خيالين التحفنا بالضى      والسقم ما نخشى من الرقباء  
يا سائلى عن سرٍّ من أحببته      السرُّ عندى ميت الأحياء  
تالله لا أشكو الصبابة والهوى      لسوى الأحبة أو أموت بدائى

ترى لمّ كل هذا الإغراق فى الغموض؟ أكان ابن زمرك لمكاته فى الدولة  
وتصدّره للوزارة يخشى أن ينال منه شائوه ويتهمّوه بالابتذال أو الاستهتار؟ أم كان  
لصلته بالتصوّفة ورجال الدين — لا سيما فى مرحلة الدرس بفاس — أثرها فى إثارة  
هذا الغموض الذى يضى على شعره صبغة من التصوف؟

يخيّل إلىّ إلى أن ابن زمرك كان يعانى فراغاً مهروعاً فى حياته ، ويحس بأن  
كل ما فيها مزعزع لا قرار له ، وبأنه لمكاته محسود من الناس ؛ والناس من حوله



يحكيون له الدسائس ليوقعوا به ، وهذا أمر كان شائعاً جداً في دويلات العرب بالأندلس في أيامها الأخيرة ؛ لذلك كنا نرى ابن زمرك في كثير من أدوار حياته وحيداً يعاني من آلام وحدته حتى ليتمضي الليل لا يؤنس وحشته إلا المصباح ، فيناجي هذا المصباح ويبيته شكاته :

لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى ذبال بأذيال الظلام قد التفتاً  
تشير وراء الليل منه بنانه مخضبة والليل قد حجب الكفا  
تلوح سناناً حين لا تنفع الصبا وتبدى سواراً حين تثنى له العطا  
قطعت به ليلاً يطارحنى الجوى فأونةً يبدو وأونةً يخفى

أو تراه في قصائد عدة يث غرناطة الحب ، ويختصمها بالهوى :

غرناطة منزل الحبيب وقربها السؤل والوطر  
تبهز بالمنظر العجيب فلا عدا ربعها المطر

لكن ابن زمرك يؤلمه لؤم الناس وحسدهم حتى يسائل مستنكراً : « أَلِخْصَةَ  
فَوْضَ لِي الْمَلِكُ مَا فَوْضَ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ ؟ » . . . ثم هو يترك أمور السياسة  
مختاراً ، ويعكف على الدرس في جامع مالقة ، ثم في مسجد الحمراء يعلم الناس  
الفقه والتفسير ، فيتوافد الناس على درسه يتزاحمون لينهلوا من علمه الغزير .  
ومات الغنى بالله ، وخلفه ملك آخر لم يطق صبراً على ما يواجهه ابن زمرك للولادة في  
درسه من نقد وتجريح ، فألقى في سجن قصبة المرية ، وخلف ذلك الملك ملكان  
عفا آخرهما عن ابن زمرك وأعاداه إلى الوزارة في قصر الحمراء ، ولكن يد الغدر  
والخيانة لم تمهله فقتله مع أولاده أحد الخدم ذات مساء وهو قائم في بيته والمصحف  
الكريم بين يديه يطالع فيه .

## جميل صدقي الزهاوي

أما في بني الأرض العريضة مُصاححٌ      يخففٌ ويلات الحياة قليلاً ؟

ظل هذا السؤال وتلك الصيحة يترددان على لسان الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي مدى حياته ، وما كان الزهاوي شاعراً فحسب ، بل كان فيلسوفاً ورائداً من رواد الحرية الأوائل في العراق الحديث الذين قاوموا الظلم والطغيان وصمدوا للعسف والجور ، وضخوا حياتهم في سبيل المبادئ الإنسانية النبيلة .

وُلد الزهاوي في بغداد عام ١٨٦٣ وتلقى العلم عن أبيه محمد أفندي فيضي مفتي بغداد وينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى سيف الإسلام خالد بن الوليد ، أما أمه فكانت كردية . وقد اشتهر بالزهاوي نسبة إلى زهاو من بلاد فارس موطن جدته لأبيه ؛ وهكذا اجتمعت في دماء الزهاوي خلاصة حضارات عريقة ومدنيات تليدة كان أميناً أن يضيف من جهوده لبنة إلى بنائها ، فأجاد من اللغات العربية والكردية والفارسية والتركية ، كما أشربت نفسه علوم الدين واللغة التي تلقاها عن أبيه .

وفي عام ١٣٠١ هجرية اشتغل بالتدريس بالمدرسة السلمانية واستطاع عندئذ أن يجد من فراغه فرصة يكب فيها على دراسة الفلسفة والتعمق فيها ، وأن يتحرر بفكره من رواسب الجود والجهل المسيطرة على مواطنيه ، وأن يتعرف على شخصيته ويبدأ في الإعلان عنها والجهل بآرائه الحرة ؛ لكن سرعان ما نباهه المقام في وطنه ، وضاق به الطغيان ذرعاً ، وأحست نفسه الشاعرة بآلام الظلم وجور الحكام وتحاذل الناس فيما حوله فقال :

ليس ليل مثل ليلي      ليس يوم مثل يومي  
إنما أهملني في      ساعة الحاجة قومي

ورحل من العراق سنة ١٣١٢ هـ قاصداً استامبول ماراً بمصر ، وكانت الحرب اليونانية قائمة ، وانتصرت قوات الخلافة ، فنظم في ذلك قصيدة مشهورة مطلعها :

هو الفتح أنى في قلوب العدا هَوَلاً      وأثبت أن الحق يعلو ولا يُعْلَى

كان الشاعر يظن أن الحال في استامبول أفضل منها في العراق ، لكنه لم يلبث أن تبين الحقيقة المرة ، وأدرك أن جو العاصمة العثمانية أشد نكدًا من عاصمة الرشيد فهو جوملىء بالفتن والمؤامرات والاستبداد ، فرحل عنها بعد عام قاصداً اليمن ، لكن السلطان عبد الحميد استدعاه ثانية إلى تركيا وحرّم عليه مغادرة استامبول خوفاً من التجائنه إلى مصر حيث يفسح المجال لقلبه الحر في مصاولة الاستبداد ؛ إلا أن السلطان عبد الحميد خلع عن عرشه واستعاد الشاعر حريته في الرحلة إلى بقاع الأرض ، فعاد الرحيل إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق إلى أن انتهى به المطاف إلى بغداد حيث توفي في ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦ .

ولم يكن الزهاوى شاعرا محلياً بل كان شاعرا عالمياً لا يقصر فنه على العراق فقط ، بل هو في معظم شعره يتحدث عن الشرق كله الذى وحدت بينه الحن والأرزاء ، وكانت صحف مصر والشام والعراق جميعاً منابر تردد صيحاته الداعية إلى الإصلاح .

ولقد تلقت الزهاوى أول ما تلقت فوجد نصف قوى الأمة معطلا ، ووجد ربة الأسرة في العراق والشرق قاطبة جاهلة لا تعلم من أمور الدنيا شيئاً وهى التى يوكل إليها أمر النشء وأجيال المستقبل ، فبدأ يتحدث إلى الناس برفق يذبهم إلى أهمية هذا النصف من المجتمع .

يرفع الشعب فريقاً      ن إناثٌ وذكورُ

وهل الطائر إلا      بجناحيه يطيرُ ؟

ثم يدعوهم إلى الاعتراف بحق النساء عليهم والرفق بهن :

لقد أضاعت عنده من الحياة حقها  
فهل تزوجت به أم مَلَكته رَقْها ؟  
وإنما الروح التي بعسفه أرهقها  
إن صدقت كذِبها أو كذبت صدقها

إن ذلك هو سر تأخر الشرق فليتمنحوا النساء حقوقهن في الحياة والحرية :  
أخّر المسلمين عن أم الأَرْض حجابٌ تشقى به المسلماتُ  
ما تفكرتُ في الحقيقة إلا واعترتني الشكوك والشبهاتُ  
أما الشباب عدّة الأمة وسلاحها في مناهضة الضعف ومواجهة أحداث الزمان  
فهم أولى الناس بحمل أعباء الجهاد ، ولذلك عنى الزهاوى بالتحدث إليهم دائماً  
والاجتماع بهم يبيث بينهم دعاواه للإصلاح ، ويستصرخ همهم للنهوض ، ويدعوهم  
للعمل والجهر بأرائهم الحقّة غير هيايين :

بُثُّوا بالسنة لكم من نارٍ ما في جماجمكم من الأفكارِ  
سيروا إلى غاياتكم في جرأة كالسيل هذّاراً وكالإعصارِ  
كونوا جميعاً سادة لنفوسكم فالعصر هذا سيد الأعصار  
قولوا الحقيقة جاهرين وأعلنوا للناس ما فيها من الأسرار  
وإذا كانت الحقيقة مرة والناس أعداء ما جهلوا ، فسبيل الإصلاح ملئ  
بالأشواك والصخور ، وعلى المصلحين احتمال الأذى لتبليغ رسالتهم :

لا يَنْبَطِك عن مناصرة الحق (م) صياح الغوغاء والجاهليين  
إن من كان بالحقيقة مغرّياً لا يبالى بالشتم والشتمية—  
إنما يبقى الحق حقاً وإن أغْمَض عنه المكابرون العيون  
وعلى الأحرار في كل مكان أن يعملوا في سبيل مبادئهم مهما لاقوا من صعاب .

الحر فَمَالُ فما هو من يمارى أو يُمارى  
إن الألى غرسوا مبا دُهم سيجنون الثمارا  
أنتم أحق الناس أن ترعوا لنفسكم الذمارا  
ليس الذى يؤذى فيس ككت جامداً إلا جدارا

وما كان الإصلاح إلا جهاداً ومجالدَةً والفوز فيه للقوة فأعدُّوا بنى الشرق  
أنفسكم للعمل وأعدُّوا للعمل عدته لأنه :

ليس الحياة سوى نزاع دائم يا للضعيف به من الجبارِ  
الفوز للجدِّ الجرى فؤاده والويل كل الويل للخوارِ  
ولا تستكثروا الضحايا لأن الحقيقة غالبية والعالم لا يعى إلا منطق القوة :

لا تسكت الحق نار للقارعات تصوتُ  
يموت للحق خلقٌ والحق ليس يموت

لسكن الزهاوى ليس عنيفاً دائماً فى شعره ، بل كان شاعراً رقيق الحاشية مهذب  
النفس ، رقيق المشاعر ، سريع التأثر بما تقع عليه عيناه . ولقد نظم الشعر أول ما نظمته  
بالفارسية حتى برع فيه ثم تحول إلى العربية فاكتسب شهرة أوسع ، وظفر بقراء  
أكثر ، واتسعت دائرة عارفيه ومحبيه .

وككل شاعر مرهف الحس ذواق للجمال أغرم الزهاوى بالطبيعة ومباهجها  
ونظم فيها الكثير من الشعر كقوله :

أنتِ مما تبدينه من صفاء يا سماء العراق خير سماء  
انظرينى فقد أحببكِ قلبى وأحببتكِ مثله حوْبائى  
انظرينى إذا العنادل غمَّت سَحَرًا فوق منكب الشجرَاء  
انظرينى ليلاً إذا الشمس غابت بعيون النجوم فى الظلاماء

انظرينى إذا الخليفة أخفتُ ماها فوق الأرض من ضوضاء  
انظرينى إذا الطبيعة أصغت في الدياجى إلى خرير الماء  
انظرينى إذا الحوادث رامت هدأة في الصباح أو في المساء  
انظرينى إذا الخريف تراءى آسيماً من أشجاره الجرداء

إن المرء ليحس ولا شك عند ما يطالع ذلك الشعر بتلك الألفة التي قامت بين  
الشاعر والطبيعة وقد وجد فيها مؤنساً في وحشته يغنيه عن الناس الذين لم يلق منهم  
إلا شراً حتى أحس أنه غريب في بيئته وحيد في دنياه ، فقال :

أنا لا يسأل عني أحدٌ حين أغيبُ  
أنا كالرحمة مفقود وكالحق غريبُ

واطالما أحس الشاعر بالأسى في دنياه ، وأشفق على نفسه من هذه الوحدة  
القماسية ، وقد صور هذه الحال بأبلغ تصوير حين قال :

أموت بعيداً عن ديارى وعن أهلى فنن ياترى يبكى حوالى من أجلى  
أموت غريباً في ربوع شبيبتي ولا صاحبٌ عندى يمرّض أو يسلى  
سيفتادنى حتفى إلى الرمس صاغراً ويقطع عن دنياى سيف الردى حبلى

ولا شك أن المسثول الأول عن آلام الشاعر المروعة هي بيئته . . أجل فساد  
الناس حوله يعيشون في فقر مدقع وجهل مظلم ، ويقود القطيع طاعة ظلمة ؛ دستورهم  
النفاق وبضاعتهم الفسق والخداع . . يخوفون الناس من الحرية ومن كل دعوة  
إلى النهوض :

أرى الناس إلا من توفر عقله من الناس أعداء لكل جديد  
رأيت جيعاً فاخروا بثيابهم فأضحكنى ما قد رأيت وأبكاني  
وما الناس إلا خادع بمقالة يريد به الدنيا وآخر مخدوع

ولقد بلغ الزهاوى الذروة من القوة والإبداع فى تصوير ذلك المجتمع المنافق الذى يموج بالفتن ، وتغلى فيه الصدور بالحق على حين يقتله الجوع والمرض والذل فى داليته المشهورة « النادبة والعدل » :

يحول عنها العين ثم يعيدها حذار عدوى تغلى عليه حقوقها  
ويغضى خلال النظرتين محاذراً رقيقاً لها إن لم يكده يكيدها  
يعز على عيني أن تنظرا إلى بلاد تسوس الناس فيها قرودها  
تعث بأهلها فتسقيهم الردى وتغضب من أموالهم وتبيدها  
يعز على عيني أن تريا بها شباباً من الأحرار صفراً خدودها  
محاطين بالأرزاء فى أرض ذلة تهائمها منحوسة ونجودها  
إذا أقلت عنهم سحابة فتنة أظلمهم أخرى تدوى رعودها  
حياة لهم لم يبق ضمن جسامهم سوى شعلة فيها قريب خمودها

ويمضى الزهاوى فى تلك القصيدة فيعرض علينا صوراً شتى من الظلم والظلميان والجور الذى كان يعانيه الناس :

فكم زوجة لما دهى الظلم بعلمها بكت فبكى فى الحجر منها وليدها  
ومفجوعة أودى أخوها بعسفهم ووالدة قد بان عنها وحيدها  
مغان تظل الغانيات بأرضها وقد غيل حاموها تفرى كبودها  
فأين الأحرار ليضعوا حدّ الآلام الناس :

فوق خد البيض الحسان سطورٌ كتبت بالدموع فيها شكاة  
وهب الله للرعايا حقوقاً غصبتها من الرعايا الولاة  
أرهقوكم ذلاً وأنتم سكوتٌ أين أين الأحرار؟ أين الأباة؟

وما كان الزهاوى يصدر فى كل ذلك إلا عن حب عميق تأصل فى نفسه ..

حب للحياة الكريمة الأبية وهل تحلو الحياة بغير الحرية . . ؟ إنها ولا شك أغلى ما في الحياة :

غنى حريتنا السحيبة المهاجرة  
فقد تعود بعد ما ولت كشمس غائره  
كنا بها في حقبة من الشعوب الظافرة

لكنه يلتمس الحرية في كل مكان من ربوع بلاده فلا يكاد يبصرها فيصرخ مستغيثاً مما يراد به :

أسألكم ماذا على الشاعر الحرّ إذا رام تصوير الحقيقة في الشعر ؟  
يريدون منه أن يظل محافظاً على صمته حتى يغيب في القبر  
ولكن نفس الشاعر الحر ملؤها عواطف يدعوه إلى الجهر أو تغرى  
وتضيق نفسه بالحياة وترى الموت أفضل مما تعانیه من آلام ، لكن الشاعر  
حريص على الحياة يخاف الموت لأنه عدم ، فيذب هذه الأفكار عن نفسه  
ما استطاع :

يرى النفع كل النفع في الموت إنما أضرّ بها بين العداة وجودها  
تقول له : لا تحرصن سفاهة على عيشة قد بان عنك رغيدها  
تريد بعزم أن تفارق جسمه وتلك عليه شقة لا يريدتها  
تنازعه حوض المنية نفسه فتطلب ورداً عنده ويدودها

أخيراً أرى الزهاوى يتفق مع شاعر النيل حافظ إبراهيم في إجادة التفجع والتعبير  
عن آلام النفس والناس ، وما أظن ذلك إلا لما لاقاه كلاهما في دنياه من مأس  
وأرزاء ، وإما كانا يحسانه من مشاركة في هذه الآلام . . . ومن أروع ما قرأت  
للزهاوى هذه الصورة الأصيلة لحزن الوالدة على وحيدها :



وصكت (حنان) أمه الوجه للجوى      وعضت بأطراف البنان من الشكلِ  
على رأسها تحشو التراب بكفها      وتذرف عيناها المدامع كالوبل  
بنى ليؤذيني على رزئك الأسى      بنى ويغلى فى فؤادى كالمهل  
أرى يارجاء النفس خطبك قاتلى      ويا حبذا إذ أنت تحت الثرى قتلى

لكن الزهاوى لم يخرج إلى الناس ، ولم يندمج مع أفراد الشعب كما فعل  
حافظ ، بل آثر التقية والعافية فى الابتعاد عن الناس ، وظل حياته يردد هذا البيت :  
أسرُّ مكان فى الطبيعة ربوةً      إلى جانبها روضة وغدير

---

فكان له من هذه الصراحة أعداء كثيرون حاربوه في حياته ورزقه أعنف الحرب؛ حتى أنه عند ما كان في العراق وطال حنينه إلى زوجته التي خلفها في استامبول لم يجد ما يساعده على تسكاييف السفر :

قد عاقني الإملاق عن سفرى إلى مَنْ طال معتلجاً إليه حنينى  
وأنا المشوق ولست بمن شاقهم بقر « العذيب » ولا مَهَّ « يهرين »  
لكن قلبى لا يزال يشوقه ظبى أقام بدار قسطنطين  
ومع ذلك فهو لا يحمل ضغينة لأحد، بل تأبى عليه رقة مشاعره إلا أن يرجو  
الخير لكل العباد حتى من عاداه :

أنا والله لا أريد بأن أوقَّع شرّاً ولو على من يعادى  
إن لى أن سمعت أنه محزون أنيناً مرجماً فى فؤادى  
إن نفسى عن همها ذات شغل بهموم العباد كل العباد  
ولقد حفلت أيام حياته بالأحداث السياسية الجسيمة التى وجدت صداها فى  
شعره بعد أن اخترقت بصيرته النفاذة أطرها، ووقفت على حقيقة أمرها ومعانيها،  
فقال عن التمثيل السياسى الناقص :

علم ودستور ومجلس أمة كلٌّ عن المعنى الصحيح محرفُ  
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرفُ  
أما مبادئُ ولسن التى أعلنها فى أعقاب الحرب العظمى فلن تعلن للشرق سوى  
الخسار، وكان تفسيرها دائماً لصالح قوم دون أقوام آخرين :

مد « ولسون » فى السياسة حبلاً جمع النقص فيه والإبراما  
فلبعض الأنام كان عصاماً ولبعض الأنام كان خصاماً  
ملاً الدهر فى « فيومة » فخرأ وبأزمير أخجل الأياما

وقال :

أيها المسلمون لستم من الغرب ب مجال تستوجبون احتراماً  
إنما أنتم لدى الغرب قوم خلقوا عن سوى الشرور نياما  
ولقد تفاعلت شاعرية الرصافي مع الطبيعة فترجمت عنها في صور رائعة إلا أنها  
صور قد شابها مشاعره الخاصة ولوّنتها بأحاسيسه وانفعالاته النفسية من أثر البيئة وما  
كان يحسه فيها من التواء وجفاء ، فاستمع إليه بصف الغروب فلا يرى في صورته  
إلا انعكاساً لما يحسه بين قومه من ظلم وجحود :

غربت فأبقت كالشواظ عقيبها شفقاً بحاشية السماء طويلاً  
شفق يروع القلب شاحب لونه كالسيف ضمتخ بالدماء مسلولاً  
يحكي دم المظلوم مازج أدمعاً هملت بها عين اليتيم همولاً  
حتى توارت بالحجاب وغادرت وجه البسيطة كاسفاً مخذولاً  
فكأنها رجل تحرم عزّه قرع الخطوب له فعاد ذليلاً  
وانحط من عرف النباهة صاغراً وأقام في غار الهوان خمولاً

ولطالما تردد هذا المعنى في شعره حتى ليخيل للمرء أن الرصافي قد قضى حياته  
شقياً ، ومات بائساً ؛ وعاش عمره متألماً نائماً على قومه الذين ضيعوه حتى ليصيح  
بهم صيحة يأس :

إذا الدُّرُّ أُمسى كالسحاب محمراً شددت به للنابحات سواجراً  
وما العار في هذا على وإنما على من أضاعوا مجدهم والفاخراً  
ومع كل هذا لم يفقد إيمانه بنفسه ، بل كان كأيّ فنان أصيل شديد الاعتزاز  
بفنه وإكرام شخصيته :

أغنت خشونة عيشي لى ذرا شرفي عما أرى بنخسيس العيش من لين

## معروف الرصافي

فشرُّ العالمين ذوو خمول إذا فاخرتهم ذكروا الجودا  
فدعنى والفخار بمجد قوم مضى الزمن القديم بهم حميدا  
وعاشوا سادة في كل أرض وعشنا في مواطننا عبيدا  
إذا ما الجهل خيَّم في بلاد رأيت أسودها مُسِخت قرودا

يمثل هذا الشعر القوى الرصين كان معروف الرصافي يهدر على ضفاف دجلة منذراً قومه ، مستنهضاً همهم ، كما كان يزأر شاعر النيل حافظ إبراهيم ليوقظ قومه والشرق معهم ، وعاش كلاهما نائراً مثيراً يحاول إيقاظ النيام وتنبيه الغافلين إلى حقائق الحياة في القرن العشرين . . . الحياة الدائبة الحركة السريعة التطور الممعة في التقدم الخاطف ، التي لا تلتفت إلى الضعيف ولا المتردد والخوار .

وإذا كان حافظ قد ولد في مصر عام ١٨٧١ ، فإن معروفاً قد ولد في بغداد عام ١٢٩٢ هجرية الموافق ١٨٧٥ ميلادية في أسرة متوسطة الحال ، وكان أبوه جندياً من جنود الدولة العثمانية ، منحدرأ من عشيرة كردية تقطن السركوك تسمى الجبارة ، تدعى أنها علوية النسب ؛ أما أمه فن عشيرة القراغول وهم بطن من شمر القاطنين في سهول العراق .

شب معروف فوجد والدأ « متديناً يصلى كثيراً ، ويقرأ القرآن كثيراً ؛ حديد المزاج ، إذا غضب أخاف ، وإذا ضرب أوجع » كما وصفه . ولا شك أن هذا الوالد كان له أثر كبير في حياة ابنه مما أخذه من القسوة ، وما فرض عليه من تدين وقيود اجتماعية أدت بالرصافي إلى الثورة المتطرفة على كل ما أحاط به وبمجتمعه من قيود وتقاليد ، وإلى الإحساس بالقلق والاضطراب طول حياته التي قضأها متنقلا بين ربوع العالم العربي .

ولقد اشتغل الرصافي في مستهل حياته بالتدريس ، وعند ما شبت الثورة في تركيا ضد السلطان عبد الحميد الذي طالبه الأتراك بالدستور ؛ كان الرصافي من أوائل الشعراء الذين غدروا هذه الثورة بأشعارهم ، ونفخوا في نارها بأقوالهم ، ثم ترك عمله في العراق وسافر إلى استامبول حيث أقام أمداً طويلاً .

ولقد عاد إلى العراق عام ١٩٢١ فألحقته الحكومة في العمل بالتدريس بمدرسة المعلمين ، ثم مفتشاً للغة العربية ، ثم في ديوان الترجمة . وقد سافر كثيراً في هذه الفترة إلى تركيا والشام ومصر كما أصدر جريدة الأمل التي عاشت من العمر ثلاثة أشهر .

وعند ما انتخبت العراق برلمانها سنة ١٩٣٠ كان الرصافي من بين أعضائه المبرزين ، وظل عضواً مدى ثلاثة انتخابات متوالية ، كان آخرها سنة ١٩٣٧ ، ثم اعتزل العمل والسياسة بعد ذلك وألحت عليه العلة في أواخر أيامه حتى اعتزل في بيته إلى أن وافاه أجله عام ١٩٤٥ .

لكن شهرة الرصافي الأولى لم تكن في ميدان السياسة أو الخطابة بقدر ما كانت في الشعر الذي عبر به عما يختلج في نفسه من أحاسيس وما يضطرب في بيشته من أحداث ومشاعر ، ولقد كان يمتاز إلى جانب هذه الحساسية ودقة الملاحظة والصرامة التي تأبى الرياء بسعة في الاطلاع على مفردات اللغة وشواردها وبمقدرة لا تداني في حسن استعمال تلك المفردات . وما كان الرصافي ليستطيع الصمت على ما يرى أو يحس وقد تبلغ به صراحته حد التهور والاندفاع فتراه يكتب معزياً في وفاة الحسين في سجل التشریفات فلا ينسى أن يقول :

وفي الثاوي لنا عظةٌ وذكري نجدّها بها على الحلفاء وجدا  
فلا نرضى لهم من بعد وعدا ولا نرعى لهم من بعد عهدا

عاهدت نفسي والأيام شاهدة ألا أقر على جور السلاطين  
وكيف يقر على جور السلاطين من عاش حياته ثائراً على أوضاع مجتمعه ، وهو  
الذي عبد الحرية حتى ولو جلبت عليه سخط الجماعة :

الحر من خرق العادات منتهجاً نهج الصواب ولو ضد الجماعات  
وآثر الحق ، وثار من أجله في كل مكان :

أبي الحق إلا أن أقوم لأجله على الدهر في كل المواطن ثائراً  
وأن أتمادي في جدال خصومه وأقرع منهم بالبيان المكابرا  
ولا شك عندي في أن أشد ألوان الباطل التي واجهها في مستهل حياته وجعلت  
الدماء تفور في عروقه كانت مظالم الأتراك واستبدادهم :

سكنا من جهالتنا بقاعا يحجور بها المؤتمر ما استطاعا  
فكدنا أن نموت بها ارتياحاً وهبنا أمة هلكت ضياعاً  
تولى أمرها عبد الحميد

نتقم في قصورك غير دار أعاش الناس أم هم في بوار  
فإنك لم تطالب باعتذار وهب أن المالك في دمار  
أليس بناء يلدز بالمشيد ؟

بل قال فيهم :

مهم من الناس حيث لو غر بل الناس لسكانوا نفاية وحالة  
ومن الجهل حيث لو صور الجهل لسكانوا بين الوري تمثاله  
حملونا من عيشهم كل عبء نم زادوا أصهارهم والكلالة  
لكن لا يقع اللوم كله على الأتراك ، بل أهل العراق شركاء في اللوم لأنهم  
مكنوا لهم من رقابهم واستسكانوا للضم وعيشة الهوان :

ألسنا الألى كانت قديماً بلادنا بأرجائها نور العدالة يسطع ؟

فما بالناس نستقبل الضيم بالرضى ونعنو لحكم الجائرين ونخضع ؟  
فلو أن غير الحى يشرب مثلنا هواناً لأسمى قالساً يتهوع  
ويمضى الرصافى بين قومه يستنهض همهم ويوقظ نيامهم ويقرع أسماعهم كل  
يوم بقارة تزعزع إيمانهم بما ألفوه من أوضاع سقيمة ، فيوماً يقول لهم :  
إنما العيش الأقوى فمن ضعفت أركانه فهو فى الثاوين مخترم  
والعجز كالجهل فى الأزمان قاطبة داء تموت به أو تمسخ الأمم  
ويوماً يقول :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم بالموبات عميدها  
وأعجب من ذا أنهم يرهبونها وأموالها منهم ، ومنهم جنودها  
لكنه مع ذلك ينفخ فيهم من روحه ويحاول أن يسمو بمعنوياتهم ليطلبوا  
بحقهم فى الحياة :

سنطلب هذا الحق بالسيف والقنا وشيب وشبان على صبر بلقى  
بكل ابن حرب كلما شد هزها بعزم من السيف المهند مشتق  
تراه إذا ما عبس الموت وجهه بوجه يلاقى الموت مبتسم طلق  
من العرب مطبوع الطباع على العلا بديع معانى الحسن فى الخلق والخلق  
وهو يعلم أن النجاح لن يحقق إلا إذا تعلم الشعب فعرّف حقوقه ، فيمضى فى  
دعوته إلى العلم لا ينى فى ذلك ، ويهيب بقومه لتعليم البنات ، نصف المجتمع الذى يعيش  
فى غياهب الجهل ، بينما هى المدرسة الأولى للناشئة :

ولم أر للخلائق من محلّ يهذبها كحضن الأمهات  
فحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات

وأخلاق الوليد تقاس حسناً بأخلاق النساء والوالدات  
فكيف نظن بالأبناء خيراً إذا نشأوا بمحضر الجاهلات  
ولذلك قال الرصافي أيضاً :

هل يعلم الشرق أن حياته تعلو إذا ربى البنات وهذبا  
من أين ينهض قائماً من نصفه يشكو السقام بفالج متوصبا  
وهكذا عاش الرصافي حياته يحمل مشعل الحرية والكفاح والإصلاح الاجتماعي  
في العراق ، ومهد السبل لمن يأتي بعده ليستأنف الجهاد .

---



## أبو القاسم الشابي

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر !  
ولا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للقيد أن ينكسر

واستيقظ الشعب التونسي على هذه النعمة الجديدة من أنعام الحياة التي تدعوه  
للإيمان بنفسه وبحقه في الحياة إيماناً يوصله إلى الظفر بحريته والتحرر من الأغلال .  
وأصاخ الشعب في دهشة لهذا النداء الحر الجريء الذي يدعوه إلى مجاهدة العدو  
القوى المستبد . . . وأتى له أن يصاول هذا الجبار العنيد ذا القوة والجبروت والأسلحة  
الفتاكة والمعدات الميكانيكية الحديثة

وازداد عجب الشعب وهو يستمع إلى هذه النذر يوجهها على عدوه في جرأة  
غريبة على أذنيه التي ألفت أنعام العبودية . . . ينذره بالفناء العاجل والعاقبة الوخيمة  
عند صحوة الضعيف المظلوم ، فهناك سيجرفه سيل الإيمان وقوة الحق ونار الحقد الدفين  
في الصدور . . . كلها ستقتلعه من حصونه ، وتقذف به إلى الحضيض :

ألا أيها الظالم المستبدّ حبيب الفناء عدوّ الحياة  
سخرتْ بآنات شعبٍ ضعيفٍ وكفك مخضوبة من دماه  
وعشت تدنّس سحر الوجود وتبذر شوك الأسى في رباه

\*\*\*

رويدك لا يخذعنك الربيع وصحو الفناء وضوء الصباح  
ففي الأفق الرحب هول الظلام وقصف الرعود وعصف الرياح  
ولا تهزّان بنوح الضعيف فمن يبذر الشوك يحنّ الجراح  
تأمل هنالك أنى حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل

ورويت بالدم قلب التراب وأشربته الدمع حتى نمل  
سيجرفك السيل سيل الدماء ويأكلك العاصف المشتعل  
لكن الشاعر الشاب يقسم لهم أن كل ذلك ممكن متى آمن الشعب بحقه ،  
وبأن هذا الحق يؤخذ ولا يمنح ، وبأن على الشعب أن يجاهد جهاداً إيجابياً في  
سبيل الظفر به .

وتثور تونس الخضراء في وجه الاستعمار ، وتلتف حول زعيمها الروحي أبي القاسم  
الشابي الذي أخذ ينشدها أناشيد الثورة والحياة التي تفيض بالقوة والعزة مستوحياً  
في شعره تلك الروح السامقة التي تلهمه إياها جبال الوطن الشاهقة ؛ تلك الجبال التي  
عشق جمالها وهام بين سفوحها الخضراء ووديانها . وهو في صوره الشعرية قد تحرر  
من أسر الماضي وعبودية التقليد ، واتجه بجماع قلبه ونفسه إلى الحياة ينزع منها  
صوره بعد أن صقلت شاعريته بتجارب العلم والحياة في وطنه وفي فرنسا حيث ارتحل  
طلباً للمعرفة فاغترف منها ما شاء إلى جانب اللهو والانطلاق ، فجاء شعره صورة  
صادقة لما يحسه ، وللحياة فيما حوله . فهو إذا تحدث عن جبال تونس ومراعيها نقلك سحر  
حديثه على أجنحة ملائكية رقيقة إلى ذلك الجمال الساحر تمتع الطرف والنفس به  
ساعة مع الشاعر :

أقبل الصبح جميلاً يملأ الأفق بهـاء  
فتمطى الزهر والطيرُ وأمواج المياه  
قد أفاق العالم الحيَّ وغنى للحياه  
فأنيق خرافي واهرعى لى يا شياه

\* \* \*

وامرحى ما شئت في الوديان أو فوق التلال  
واربضى في ظلها الوارف إن خفت الكلال



خطواتٌ سكرانةٌ بالأنشيد وصوتٌ كرجع نايٍ بعيدٍ  
وقوام يكاد ينطق بالألحان في كل وقفة وقعود  
كل شيء موقعٌ فيك حتى لفظة الجيد واهتزاز النهود

ويفشل أبو القاسم في غرامه ، لكنه شابٌ ملء إهابه حياة وأمل ذو عزيمة  
من حديد لا تعرف اليأس ولا تمل من الحياة ، بل هو يعشق حياته وما فيها من  
جمال ، ولا يريد أن يشقى بهذا الفشل ، ولا أن يستسلم لآلام هذا الحب العنيف ؛  
فتراه يصيح بقلبه ونفسه وروحه ويدعوها جميعاً لاغتنام فرصة العمر ، والابتعاد عن  
مواطن الحزن واليأس :

اسكتي يا جراح واسكني يا شجون  
مات عهد النواح وزمان الجنون  
وأطلّ الصباح من وراء القرون  
في فؤادي الرحيب معبداً للجمال  
شيدته الحياة بالرؤى والخيال  
فتلوت الصلاة في خشوع الظلال  
وحرقت البخور وأضأت الشموع

لا . . . بل إن تونس الخضراء جميعاً في حاجة إلى أن تعشق الحياة مثله ،  
وإن لها عليه حقاً أن يوقظها من سباتها ، وأن يستثير حميتّها وينفخ فيها من شبابه  
وروحه . . . إنه يزأر زئير الأسد لينبه الغافل ويصحو النائم . . . إنه يأخذ بيد  
مواطنيه إلى منابع الحياة ومشارف النور ، ويبصّرهم بحقهم في الحرية والكرامة ،  
والعيش العزیز .

وتنطلق من قلبه الأناشيد الوطنية والملاحم الشعرية الرائعة تهزُّ قلوب مواطنيه  
هزاً عنيفاً ، وتزلزل قواعد الظلم والطغيان زلزلة رهيبية ، فاستمع إليه يتدرج بمواطنيه  
في القصيد من رقة الإنسان ودعة الغدير في انسيابه اللطيف وشقشقة الطير يغرد  
لمشرق الصباح الجميل إلى هزيم العاصفة وزئير الأنواء .

خلقتَ طليقاً كطيف النسيم      وحرّاً كنور الضحى في سماء  
تغرد كالطير أئى اندفعت      وتشدو بما شاء وحى الإله  
وتمشى كما شئتَ بين المروج      وتقطف ورد الربى في رباه  
فمالك ترضى بذلّ القيود      وتحنى لمن كتبلك الجباه  
وتقنع بالعيش بين الكهوف ؛ فأين النشيد ، وأين الأباه ؟  
ألا أنهض وسرّ في سبيل الحياة فمن نام لم تنتظره الحياة  
إلى النور ؛ فأنور عذب جميل ، إلى النور فالنور ظلّ الإله

لكن السل اللعين يصيب الشاعر الشاب فيرهقه ، ويعتصر ماء الحياة  
في جسده الغض ؛ وكأنه قد تحالف مع الاستعمار والظلم في البطش بذلك الرائد الشاب .  
لكن الشاعر يقاوم ويناضل في الجهتين ، ويسخر بالعدوين ، ويود لو طال به العمر  
حتى يرى فجر الحرية بشرق على بلاده :

لا يطفىّ اللهب المؤجج في دمي      موجُ الأسى وعواطفُ الأرزاء  
فأهدمُ فؤادى ما استطعتَ فإنه      سيكون مثلَ الصخرة الصماء  
لا يعرف الشكوى الدالية والبكا      وضراعةَ الأطفال والضعفاء  
ويعيش كالجبّار يرنو دائماً      للفجر . . للفجرِ الجميل النأى  
النور في قلبي وبين جوانحي      فعلامَ أخشى السير في الظلماء  
إني أنا النأى الذى لا تنتهى      أنعامه . . ما دام في الأحياء

بل إن أبا القاسم عند ما يرى أباه . . . لا ينوح ولا يبكي ولكنه يقدم للناس  
أنشودة من أناشيد الحياة تحبب إليهم الحياة وتزيدهم حرصاً عليها كحرصه هو  
وتعلقه بها :

ما كنت أحسب بعد موتك بأبى ومشاعرى عمياء بالأحزانِ  
إنى . . سأظماً للحياة وأحتسى من كأسها المتوهج النشوانِ  
وأعود للدينيا بقلب خافق للحب . . والأفراح . . والأحزانِ  
واسكل مافى الكون من صور المنى وغرائب الأهواء والأشجانِ  
حتى تحركت المنون وأقبلت فتنُ الحياة بسحرها الفتانِ  
فإذا أنا طفل الحياة المنتشى شوقاً إلى الأضواء والألوانِ  
وإذا التشاؤم بالحياة ورفضها ضربٌ من البهتانِ والهذيانِ  
إن ابن آدم فى قرارة نفسه عبد الحياة الصادق الإيمانِ

أرأيت إلى هذا الفتح الجديد فى عالم الشعر العربى ، وهى المراثية التى لا تزخر  
بالتوجع والألم ، ولا تحبب الناس فى الموت والعدم ؟ أرأيت كيف يدعو الشابى  
قومه للحياة والتعلق بأهدابها والاستمتاع الكريم بها ؟ لكن هيهات فالداء  
لا يرحم وهو ينشب أظفاره فى صدر الشاعر . ويدرك أبو القاسم أنه ميت لا محالة  
فترى اليأس يهزم نفسه فى لحظات ، ويختلس مشاعره فى ومضات ؛ فتسمع نغماً غريباً  
من الشاعر الفتى التى يصطبغ بصبغة فلسفية عميقة زاهدة فى الوجود . إنه يقول  
متأملاً هذا الوجود :

نحن نمشى وحولنا هاته الأكوان تمشى

لكن لأية غاية ؟

نحن نشدو مع العصفير للشمس

وهذا الربيع ينفخ نايه ؟

نحن نتلو رواية الكون للموت  
ولكن ماذا ختام الرواية ؟  
هكذا قلت للرياح ، فقالت :  
سَلْ ضمير الوجود .. كيف البداية ؟

وتغثال المنون شباب الشاعر عام ١٩٣٥ وهو لم يتعدَّ السابعة والعشرين من  
عمره ؛ لكن وقد أحس النهاية المحتومة تدنو منه تراه لفرط شغفه بالحياة يرثى نفسه  
رثاء عجيباً وكأنه يود لولقى في العالم الآخر صوراً من دنيا الناس حتى لا يأسى على  
هذا الفراق :

هأنت ذا قد أطبقتْ جفنيك أحلام المنون  
وتطايرتْ زمر الملائك حول مضجعتك الأمين  
ومصّتْ بروحك للسماء عرائس النور الحبيب  
يحملن تيجاناً مذهبة من الزهر الغريب  
وتفرّق الناس الذين إلى المقابر شيّعوك  
ونسوك من دنياهم ؛ حتى كأن لم يعرفوك

لكن هناك قلباً لم ينسه ولن ينساه ؛ ذلك قلب الوالدة الحنون ، فيذكره  
أبو القاسم ذكر الممتن المعترف بالجميل ، ويصوّر في أبيات رائعة تلك الأمومة  
الخالدة :

إلا فؤاد ظل يحقق في الوجود إلى لقاءك  
ويودّ لو بذل الحياة إلى المنية وافتدأك  
فإذا رأى طفلاً بكاك ، وإن رأى شبحاً دعك  
يصغى لصوتك في الوجود ، ولا يرى إلا بهاك

أعرفتَ هذا القلبَ في ظلماءِ هاتيكِ اللحودِ  
هو قلبُ أمك .. أمك السكرى بأحزانِ الوجودِ

\*\*\*

هذا أبو القاسم الذى لم يرجِ إنصافاً فى حياته لأنه قد أدرك من طباع  
الناس أن :

الناس لا ينصفون الحيّ بينهم حتى إذا ماتوا رى عنهم ندموا

---